
المرتضى
مكتبة السودانية

جمال محمد أحمد

عرب وأفارقة

جمال محمّد أحمد

عرب وأفارقة



* عــربٌ وأفــارقــة

* جــمال محمد أحــمد

* الطبعة الثانية ٦/ ١٩٩٩م

إهداء

للأخ الرئيس بُومدين ....
لأنك أعطيت
من قليلك
وعزمات بلادك
ما جعل الجزائر مكة الأفارقة والسود ،
وما ألهاك ذاك
عن ذوى رحمك ،
في أيامنا هذه المذعورة
فأمضِ
«نحن على مقدار كفيك نطلب»

مقدمة

أهديت الطبعة الأولى من هذا الكتاب :

«للأخ الرئيس بومدين ، لأنه أعطى من قلبه ، ومن عزمات بلاده ، ما جعل الجزائر مكة الأفارقة والسود ، وما ألهاهُ ذاك عن ذوي رَحِمه ، في أيامنا هذه المذعورة . ورجوته أن يمضي قلت «نحن على مقدار كفيك نطلب» الآن وقد رحل عنا الرجل أحب أن أقول كلمات قليلة عن دافعي لذاك الإهداء الودود ، فللرجل علينا أيادٍ لا أحسبُنا ذكرناها مقدار ما ذكرها الأفارقة السود في صحفهم وكتبهم حين رحل ، وكانت مُتزنة يده بين السود والسمر في القارة .

لقيته أول ما لقيته في الجزائر حين رحتها أحمل دعوة السودان للمصرف العربي ، وكانت الجزائر تهم أن تدعو المصرف ليستقر فيها . ما أضاع وقت الرئيس بومدين . بارك لنا الدعوة ، قال الخرطوم أولى بمقعد المصرف أنه محط اللقاء العربي الإفريقي ، والجزائر لن تُزاحم السودان . وأضاف كلمات عاطفة عن السودان ، ورأيت صدقها في إعتدالها ، وفي الذي إنتهى إليه منها : أنه سيحمل هذه الدعوة من السودان لزملائه في كنشاسا وغيرها من العواصم الإفريقية التي أرسلت ترجو عونه . لن يشق عليهم أن يروا المنطق السوداني حين يسمعونه ، ثم إعتدل وبَسَم لي كالهاذر «أمّا عرب آسيا ، فأنتم أولى بهم منى ، عليكم أنتم ...» وأدركت كأنّ به عتب عليهم تلكم الأيام . وكانوا ــ في الحق بغوا عليه . مشوا كثيراً مع الذي بَانَ لهم من شؤون في الجزائر ، ما كان إلا بَعضَ حق الذي عرفوه ، وبنوا عليه سياسات نحوه ، شخصية .

ولقيته من بعد فى مقديشو ، وأحسبه كان يرقب الأشياء ، يتعرف فما كان قد ألِف الجموع الافريقية بعد ، وكان من سعده ، أن بُوتفليقه كان بجانبه يُؤول الذي يخفى عليه ويبهم ، وكان قد حَذَقَ فنون العمل الدبلوماسي ، ودَربَ على شئون القارة ، كاد أن يكون رسول العرب للأفارقة . كان الحديث زاعقاً عن الأمانة العامة للمنظمة ، تريد قيادتها الصومال وأثيوبيا وزامبيا، وتريدها غير هذه العواصم، وكنا في مجلسه الأمين في مَنْزَلته . سأل عن الذى ترامى إليه عن رغبة السودان فى قيادة الأمانة ، وعرف أن السودان ما جاء فى باله أن يدخل الزحام . دار الحديث بين رجاله عن مخرج لتلكم الأزمة ، وجاء فى خاطر بعضهم أن ندخل الزحام ، لا أثرةً وافتخاراً ، بل إيماناً بأنّا أقرب إلى أكثر النفوس فى المنظمة من هذه البلاد التي تخلط فى الزحام . بدت على وجه بومدين فرحة ، قال أنتم أولى برجالكم ، ولا نملك شاهداً على أن الأفارقة سيسيرون المسار كله معنا الآن .

ولقيته مرة ثالثة فى نيويورك . رُحتُ مَنْزَلته أذكرُ بالخير خطابه أمام الجمعية العامة يدعو للإقتصاد الجديد الذي كان حديث الفقراء من الأمم تلكم الأيام . تَلَقَاني هو وصديقه الطيب بُوتفليقة بالسؤال ، وما أعرف على التحقيق ، كيف عبرت له عن ريبتي فى قدرة الأغنياء على الإستجابة للذي يقول به الفقراء ، لأنه قرأ على حين فرغت «خلق الإنسان هلوعاً إذا مَسّه الشر جزوعا وإذا مَسّه الخير منوعا» ذكرت بالخير خطابه الذي إستقرق ساعات فأشار إلى بُوتفليقة إشارة العارف الشاكر . وأبى الشكر عبد العزيز من صديقه الرئيس . حول الحديث للذي كان من أمر الأفارقة والآسيويين فى ليماء أسابيع قليلة قبل تلكم الجلسة الخاصة بالإقتصاد الجديد فى نيويورك . فى عزمه الواثق قال بومدين لا علينا أن أبى الأغنياءأن يصيخوا . حتى يفعلوا ذلك ، دعنا نبشر بالتجارة داخل قارتنا بالتجارة معاً ، ونبشر بالتجارة بين بلاد العرب ، وتلك على أية حال سبيلنا فى النهاية . لن يهون عليهم أن يدعوا شيئاً من رفاههم الأرِقَة الآن . غداً ، ربما .

جمـــال محمـد أحمـد

....

للتاريخ ألسن لا لسان
عنده ملائك وعنده مخانقْ
هذه تذبح الكبار والصغار
تلك خشية القيوم لا تنام

ذات صباح يختفى رفاقْ
صخورٌ فى مساره المختار
من المنفى بهم يعود يوم يرى
ولا نراهم نحن بيننا وبينهم ستار

ثم يُزيحه وقد يئسنا ،
طال صمته .

ثم نسمع الثناء والإكبار .
كتابهم بيمينهم مِلؤهُ الخير
والبطولات التي أتوا
صحيفةٌ فوق أختها وتعجبُ الصخورْ .

ولكن من تسائل ؟ إنه التاريخ .
أشبع الواحد نفياً وارتقابا .
أشبعه من بعد أمجادا .
وهو فى الحالين حائر .

ستيفن سبندر

هذه ذِكرٌ وخواطر ، بعيدة عن أن تكون دراسة للجامعة العربية أو منظمة الوحدة الإفريقية . ستلقاك بعض نصوص وبعض وثائق ، لكنها ليست هناك لتزيدك علماً ، إنها هناك لتُعزز صُور الرجال والمواقف والأزمان كما رأيتها ، أحسستُ . أنها هناك أيضاً لتكون شاهداً على رؤيتى التاريخ على عهدى الأول ، فقد «مات الفتى المازنى وأتى من مازن فتى غيره» . لا يبقي الفتى الأول إلا القليل القليل من الفتى الآخر . ستجدك مُطوفاً معى فى الزمان لأنى سأصور لك ما رأيت آنذاك ، نذهب معا لماض غير بعيد ونعود نراه ثانية على أضواء يومنا الذي نعيشه . لن تقيد خواطرى وذِكرى قيود زمان أو مكان ، فأنا أريد أن أنقل لك الصور مكتملة قدر ما يُتاح لواحد أن يُصور بقلم ، بحرف ، بكلمة ، لا بألوان وأصباغ وفُرش هي أقدر على التصوير فى يد فنان ذى حس وأقتدار . الحس والإقتدار شِقّا مقص لا يغنيك شق عن آخر . معا يقطعان الطريق . على أنفراد يعجزان . أخذتُ هذه السبيل وهي أقرب لسبيل الروائى يختار شخوصه ومواقِفهم وأحزانهم وأفراحهم من فترة من التاريخ أو فترات . إنها سبيل أقرب لسبيل نجيب محفوظ فى بعض آثاره ، وسبيل ركس وارنر فى كل آثاره . أحترم الحقائق والقرارات والحوار والمذاهب السياسية ، لكنى لا أعُدها العنصر الأول فى الذى نعمل ، والذي لا نعمل ، من الذي نُحب ، والذى لا نُحب . هذه أجْمَعُها أغطية قبلها الناس على مَر السنين ، كيلا تَبين شهواتهم عارية لقاء بعضها البعض ، حين تصطدم ، وجنب بعضها البعض ، حيث تلتقى الأصل فى العلائق الشهوات .

نحن لا نَصدُر فى الذي نعمل عن حقائق أو وقائع . نَصدُر عن غرائز وعن شهوات ، حذقنا مع السنين أن نكسوها بمنطق الفلاسفة السياسيين وأهل النظر من علماء السياسة ، وأحب لنا أن نرى الإفريقى كما هو كاملاً ، كما أحب له أن يرانا

كذلك . المعرفة وحدها لا تحملك على التعاطف والتفاهم ، وهي وعلى أيّة حال متاحة لنا فى التقارير والكتب . أريده ليُنعِم النظر فى وجهى ، وأريد لأشركَهُ جلسة ود ، قبل أن تضمنا جلسة عمل . ذكرى وخواطرى أمل أن تضع يدك على نبض الإفريقي ، ومن يدرى ؟ ربما فعل هذا الذى أسعى لأفعله ، أحد الأفارقة غير العرب ، يكتب بواحدة من لُغات إفريقيا المكتوبة المقروءة يسعى ليضع يد الإفريقى على نبض الإنسان العربى . إذ نعرف بالحس والعقل معاً ، لا بكوة . بنافذه عليه . أرجو ذاك . تلك سكة التعطف والتفاهم . ومن أجلِهما أكتب .

* * *

أكتب ولما تمض غير أسابيع على الندوة الحولية لرؤساء الدول أعضاء منظمة الوحدة الإفريقية . بدأت فى الثاني من يوليو وأنتهت فى الخامس منه . سبقت ندوة الرؤساء ، كما يقض بذلك الميثاق . قضوا مع سكرتارية المنظمة تسعة أيام فى بورت لوى موريشص ، بين الرابع والعشرين من يونيو ، والثاني من يوليو . وكان هذا أطول ما عَرفت المنظمة من ندوات وزراء الخارجية . وأسارع أكتبُ قبل أن تنشر المنظمة على الناسَ وثائق الندوتين . أكتبُ من الكثير الذى سمعت وقرأت عن أنباء الندوتين . كان جديراً بى أن ألقى نظرة على تقرير السكرتارية العامة ، ولكنى أسارع أكتبُ لأمرين يُلحان علىّ :

أولهما : أن المعلقين السياسيين فى وكالات الأنباء وقفوا كثيراً عند المشقات التي حفّت بالندوتين ، وما كانت هذى سبيلهم من قبل . كانوا يعالجون شئون القارة الإفريقية فى رفق يحتفظون بالغلظة لشئون الجامعة العربية . لا تثير فكرة القومية الإفريقية عندهم عواطف حادة . كتلك التي تثيرها فكرة القومية العربية . أري نهجاً غير مألوف فى الذى قيل عن الندوتين ، وأخاف أن يكون هذا النهج سعياً واعياً أو غير واع لجرح إفريقيا لأنها إلتقت بعض الطريق مع العرب قبل حرب أكتوبر بقليل وأثناءها وبعدها .

وأخشى أن يَقَر فى ذهن المنظمة العربية ذلك الوجه المجرح الذى عرضته علينا أصوات وأقلام رجال الإذاعة والصحافة فى الغرب . من أجل هذا أسارع كارهاً أن تقر تلك الصورة . ولا أريد لنا أن ننسى أن تماسك القارة الإفريقية يعنينا فى المنظمة العربية . سلامتها بضع من سلامة القارة أمن إفريقيا بضع من أمن العرب . لن أدعى أنى سأعيد لذلك الوجه المجروح أمامنا حيويته كلها . لأنى أدرك أن الجريح كان حادقاً إختار الحقائق إختياراً ، ولاذ بمنطق لا تستطيع رده ، لكنى سأسعى أن أفعل .

ثانيهما : أسارع قبل أن تصدر عن المنظمة الوثائق ، لأنها والجامعة العربية على ميعاد قريب ، فما هناك وقت كثير نضيعه ننتظر الوثائق وعبارات القرارات . لا يحب المؤمنون بالجامعة العربية ومنظمة الوحدة الإفريقية ، أن يحول دون هذا اللقاء ، ما تَلْقَى المنظمة من مصاعب هذه الأيام أو تلقى الجامعة ، بل أكثر من هذا . ينبغي ألَّا تروح المنظمة تلقى الجامعة وفى ذهن كل منهما ريب عن قدرات ونيات الأخرى . لكل عثراتها ولكن أكثرها من صنع غيرها ، ما من صنع الجامعة ولا صنع المنظمة ، ولن أعجب إن جَهِدَ كثيرون فى أوربا وفى الولايات المتحدة كيلا يتم هذا اللقاء ، أو يتم والرجال من الفريقين فى شك من أمر بعضهم البعض . لن أعجب إن أضافت دول الغرب جهداً جديداً لجهدها القديم تُباعد ما بين العرب والإفريقيين ، تُذيع وتُشيع كُل مشقة هنا وهناك ، وتُبدى وتُعيد فى هذا . تُوحى بأن اللقاء لن يثمر تقول فى مداورة ، ما جدوى أن يلتقى مغفول بال بآخر أكثر إنشغال بال منه فى الجامعة شروخ تشغل بال أمانتها وأعضائها ، وفى المنظمة شروخ ، فى بلاد المنظمة والجامعة عُقد مُعقده أولى بعناية قادة إفريقيا وقادة العرب ، من الذي يعدون له .

منطق مدخول سيقول به كثيرون معهم الحق أنهم عن أرضهم يدفعون . فى زعمنا أن اللقاء المؤمن هو المدخل الأول لعلاج ما قد نغرق فيه من تحليلات سياسية وإقتصادية وتجارية تملأ الواحد ذعراً وقنوطاً ، ترى هُوّة بين المثال والواقع فى هذا الصدد فاغرة الفاه . لن يغنى أن نهاب الصِّعاب فنحجم ، عرباً كنا أم أفارقة . خير أن يلتقى الفريقان مهما لفت النتائج الشكوك ، قديمها الموروث وحديثها الذى يصنعه من يخافون اللقاء منهم ومنا ، أو الذين يكرهون له أن يتم يَخْشَونه ، يَخْشَون قربى العرب والأفارقة ، حتى وإن عرفوا أن بيننا وبين هذا التفاهم طريق طويلة .

* * *

ليس من الذكاء وهذه هي الحال ، أن نجلس ونرقب . أوربا أمكن فى الحيلة منا . ودعنا نعترف : أنهم يعرفون تاريخ العرب وتاريخ إفريقيا أكثر منا نحن فى هذه المرحلة فى حياة المنطقة العربية وحياة القارة الإفريقية ، إلى جامعاتهم ومعاهدهم تتجه أنظارنا لنعرف عن أنفسنا أفارقة كنا أو عرب . هذه نقطة قد يحسبها بعضنا غير ذات صلة بلقاء الإفريقيين والعرب ، أكاديمية . ما هكذا الأمر أوربا بشقيها الغربى والشرقى والولايات المتحدة القادمة من جديد تُحاذر اللقاء الافريقى العربى وتخافه . يعرف الفرد فى تلك البلاد فى وجدانه إن كان من العامة ، وفى فكرة إن كان من الخاصة . أنّ اللقاء العربي الافريقى عودة لمسار التاريخ فى القارة فى معنى من المعانى كبير . عودة

لصراع العبقرية العربية ضد الفُتُوة الأوربية والعلوم الجديدة فيها نزال جديد مع الطموح الذى عَمَّ أوربا بعد أن جلست على قمة الدنيا بعد الثورة الصناعية ، وأستطاعت أن تَفَصُم العرى بين العرب والإفريقيين بالسيف والنار تارة ، والحيلة الواسعة تارة. خلا لها الجو فى الأندلس الإفريقية كما خلا لها فى الأندلس الأوربية. بين أوربا المعاصرة فى الغرب وبين العرب المعاصرين ثارات فى القارة الإفريقية . قلة قليلة من العرب والإفريقيين تلك التي تعرف كيف أقحَمت أوربا نفسها على العرب والإفريقيين وكانوا جماعة متآلفه أكثر الأحيان . إنتفعت أوربا وأبنتها أمريكا بقطع الذى كان بين العرب والإفريقيين ، من تزاوج وتراحم وتجارة . حلت أوربا وأبنتها أمريكا محل العرب بالنار والدهاء ، على خلاف بين العلائق الأوربية الإفريقية ، والعلائف العربية الإفريقية . ذاك كان لقاء القاهر بالمقهور ، هذا لقاء تراضٍ أكثره .

عبرة هذا عندى أن التاريخ الحديث ساق العرب والإفريقيين سوقاً ليسيروا معاً خطوات على طريق اللقاء القادم ، ولن يحسن عربى أو إفريقى ذو مكان ورأى فى بلاده إن لم يحث أهله على الدرب الطويل . إن قعد واحد منهما أو الآخر عَزَّ الباطل وأهله . هذا لقاء إقتضته ضرورات سياسية وإقتصادية ، ما أقتضاه ترف ذهنى . إقتضته صحوة بعد غفوة . حاجات اليوم وإن لم تختفِ ثارات الأمس . إنها لحوح .

* * *

إن العرب المعاصرين فى القارة الإفريقية سعوا لدى عرب آسيا وسعوا لدى الإفريقيين معهم فى منظمة الوحدة الإفريقية بكل طاقة يملكون ، ومشى السعى أكثر الطريق ، يقف الآن لدى عتبة باب اللقاء ، قدم على العتبة وأخرى بَينَ بَين فى يد كل دولة إفريقية وثيقة تحصى دوائر العمل النافع للفريقين : فى السياسة فى التجارة ، فى شئون المال ، فى الإقتصاد ، فى الثقافة ، فى الإنتفاع بالمواهب العلمية والقدرات الفنيّة عند الفريقين . وصَدِّقنى يا أنت . ما كان صنع هذه الوثيقة من عرب إفريقيا كى تكون الوثيقة التي عند قارة إفريقيا وقادة العرب الآن . أؤكد لك أن لعرب إفريقيا وعرب آسيا مِنّه لا يُريدون شكوراً عليها أو جزاء لها ، يريدون لكن أن يلتقى الجمعان فى إيمان ببعضهم البعض ، لا يلتقون لأن اللقاء حَتْمٌ تقتضيه ضرورات العلائق الدولية ، أو عهد قطعه الناس على أنفسهم . دعنى أوجز لك الخطوات التي إتخذتها المنظمة والجامعة لترى معى أنهما أحسنا السير على الطريق رُغم الشكوك .

* * *

جلس الفريق العربى العربى ليالٍ يعدد ما يراه العمل النافع مع الفريق الإفريقى . أرسل ما انتهى إليه من دراسات للفريق الإفريقى ، وكان بين يديها دراساتها هى لِما تراه هي العمل النافع المشترك . تبادل الفريقان رؤاهما شهوراً فى القاهرة وأديس والرباط ، وحملت عنهما الأمانة سكرتارية المنظمة وأمانة الجامعة من بعد ، وكانت أمانة تنوءُ بها الجبال حملها الإنسان فى القارة الإفريقية والإنسان فى المنظمة العربية . لأول مرة ما كان جهولاً الإنسان ، وهو أكثر الأحيان ذاك الجهول الذى نعرف من كِتابنا الأكبر . قبل أسابيع وقف المسار فى داكار وكانت عَصِيةٍ سكة السنغال لأنها لم تقَل للأمانة العربية فى القاهرة أنها تريد لعاصمتها أن تكون مقعد اللقاء العربى الإفريقى ، لكن الأمانة العامة كانت حكيمة . ما أخذتها العزة بالإثم ، قالت : كان من حقها أن تعرف لكنها لن تقف فى سبيل اللقاء الإفريقى لأن حقها أُنتُهك . العبرة بالخواتيم ، لا المراسيم ، ورئيس السنغال على أيَة حال ، ما عاد اليوم ذلك الرجل الذى ظل زماناً لا يعرف مكاناً للعرب فى لعبة الأمم . كتب النثر والشعر عن إفريقيا وأغفل العرب والذى كان من أمرهم فى صنع وجدان إفريقيا . جهرت بهذا المكان الذي ما رآه الشاعر الكاتب فرنسا فجهر به بُغالى يمحو الأثر ، دَعهُ يكُن . مالنا بالظلال والأصول غير بعيدة منا ؟ مُنذ أتى الرئيس الفحل ديقول فى المنظر الفرنسى ، تغيرت الحال ورأى سنقور ما لم يره من قبل .

هُنا يقف المسار الذى بدأ فكراً جنيناً فى مقديشو يلهث الآن فرط السهر وإعمال الفكر وآلام جهد التوفيق بين فلسفات فى الحياة مختلفة وأمزجة ما بينها روابط تستأهل الذكر ، وألسنة لا تفقهُ عن بعض ، إلا خلال أفواه مُترجمين ومترجمات يُصيبون بالطبع ويُخطئون ، وما هناك على أيَة حال لسان يمكن لك أن تنقله نقلاً للسان آخر . وساسة العرب يعرفون كيف تعذر على اللسان الإنجليزى أن يحمل ما حمله اللسان الفرنسى ، على قربٍ ما بينهما ، حين حذفت (أل) التعريف فى القرار ٢٤٢ ، ولا أذهب مذهب الذين يظنون أن أحداً عَمَدَ إلى هذا . إنها المشقات التى يلقى أحدنا حين ينقل رأياً أو عاطفة من لسان إلى آخر مات القرار ٢٤٢ موتاً ما حزن عليه أحد ، لكن أيامه كانت رخاء على أهل السفسطة ، (كل الأراضى العربية المحتلة) أم (الأراضى العربية المحتلة) كان جدالاً يدور حول نفسه ، لا يصل لغاية ، وليس بعيداً أن يقع بين الأفارقة والعرب ما وقع بين العرب وإسرائيل من خلاف سببه إختلاف الألسن والتفاهم عبر مترجم ، غير أن إسرائيل شيء والأفارقة شيء آخر .

* * *

يوماً سيعرف الناس عذابات وزرائهم وسفرائهم حين يُباح الكلام وتتاح مُسَوّدَات الفكر التى كانت الأصل فى وثيقة التعاون العربى الإفريقي الذى سيدرسه الرؤساء والملوك حين يلتقون . شىء واحد لا حرج أن نقوله حتى قبل أن يُباح الكلام وتُتاح للمؤرخين والباحثين تلكم الأوراق : لولا فئة صابرة فى الجانب العربي وأخرى صابرة فى الجانب الإفريقي ، لما تيسر حتى هذا الذى تيسر فى تأليف القلوب لحدٍ يستطيع فيه الإفريقيون والعرب الكلام ، دون خشية وريبة وسوء ظن ، فى وسائل العمل النافع المشترك ومناطق هذا العمل كانت الفئة الصابرة فى الجانبين كعهدك بأشباهها وبكل قلة عازمة ، ذات بصيرة وبصر . كانت دَرِبَة على أزقة السياسة ، وكانت أزقة عتمات بعضها فوق بعض صنعتها سنون من النفرة بين العرب والإفريقيين . كان فى هذه الفئة شباب إيمانه فى العمل الجميع بين القارة الإفريقية والمنطقة العربية . أوسع من تجاربيه ، وكان كلهم شديد العضد يجلس للفجر ، لا يعجز ذهنه أو جسمه وكانوا أمام عقبات صخور . كان فى القوم كبار يبست ، المثالية الأولى فى عروقهم ، وحلت مكانها غريزة للبقاء لا تبالى الذى يكون . حرصها على ذاتها هو الدافع الأول . هذه فئة نكد . كلما إشتد حرصها على ذاتها ومقامها كلما فَحُشَ لسانها وارتفع صوتها وكثر كلامها . لا يستحون ، يفعلون ما يشاؤون .

سيظل هذا الذى أقول بعض الحق لا الحق كله ، إن لم أقل كلمة عن المخاطر التى كان يعمل فى ظلها الشباب الطيب والكبار الجزعون . كان كِلا الفريقين يتحدث وفى ذهنه قومه الذين بعثوا به للحديث فى مناطق ووسائل العمل الجميع . كلهم ، إلاّ من عصم ربك ، كانوا يتحدثون وفى قلبهم بعض ذُعر ، يُلح يسأل «أيُرضى هذا الذى أقول سادتى الباعثين إياى ؟ إن أرضاهم ، بأى مقدار يا رب ؟ أخَرجتُ عن الخط الحديدى الذى أُمرت بالسير عليه ؟ إن خرجتُ ، خرجتُ بأى مقدار ؟» .

ما كان فى الجمع فرد طليق ، الكل ظلال لرجال ، أحياناً رجل واحد إليه ترجع الأمور فى يده أن يطفىء النور وفى يده أن يُضىء الشموع أسير طموح سياسى ، يعنيه الرأى على مقدار ما يخدم ذلك الطموح . يُبقى عليه سلطانه . أحياناً أخرى أسير قروض وإعانات وإن كانت شحيحة ، عينه على المقرضين لا يقوى على نقدهم ، وبعض المقرضين غلاظ ، لا يكفيهم أن تربح أموالهم على مقدار حاجة المقترض . يريدون له أن يكون فى حجرهم السياسى ثمنٌ آخر أشد مرارة من مرارة الأسر الإقتصادى ، تشتد حلقاته حول عنقك ، كلما إقترضت أكثر . فريق آخر من المُرسلين وزرائهم وسفرائهم أسرى مذاهب يابسة لا تلين ، على الرسول أن يحاذر لا يخرج من طوقها ، وإلا لقي من

العنت ما لايستطيعه غير أهل المذاهب والنظر الأحول . فريق آخر من المُرسلين يحيا عصبيات دينية . مسيحية كانت أو إسلامية ، أوَلَهَا أهل الهوى تأويلاً ، جعل الدين طوقاً فى اليدين وقيداً فى الرجلين ، لاأمراً بمعروف ونهياً عن منكر .

تعيش القارة الإفريقية والمنطقة العربية فترة من تاريخها لا يُعين المواهب على الخلق . ولا الشخصية على النمو . تتسم بالذى إتسمت به الثورات الأوربية فى فترات من تاريخ تلكم القارة ، تقوم عصبة من الناس . ألِبة ، وصية على عداهم من أجل أن يدرؤوا خطراً يهددها فيما يقولون بعض الأحايين ، من أجل إصلاح ما أفسدت الديمقراطية الليبرالية أحايين أخرى ، من أجل إعمار لا ينبغي معه كلام ، أو من أجل هذه كلها وغيرها ، مما تستطيعه هذه الألِبةُ التى تسلم قيادها نهاية المطاف لواحد منهم ، أقوى وأدهى وأكثرهم شهوة للسيادة والرئاسة . إنها فترة من التاريخ أزعم أنها موقوتة وأنها أيضاً عقيم . سبقتها فى آسيا مثيلات لها . قالت : أن (الديمقراطية الجديدة) وأن فلسفات (الديمقراطية الموجهة) بديل النفوذ الأجنبى ، وما استطاعت التغلب على صعاب ما بعد الإستقلال . ستنظر القارة الإفريقية والمنطقة العربية ما تجيء به الجماعات التى بيدها أمرها الآن ، وتجد ما وجدته أقاليم آسيا . ستجد أن (الديمقراطية الجديدة) ما عرفت الذى تفعل بالإستقلال ولا (الديمقراطية الموجهة) . لن توفر الجماعات الداعية للديمقراطية الموجهة ما لم يستطيع توفيره سوكارنو مثلاً . ولن تقدر (الديمقراطية الجديدة: على الذى ما قدرت عليه (الديمقراطية الموجهة) . لن يتوفر الطعام والسكن والعلم لكل أسرة كما زعم الفريقان . سيشرع الإنسان العربي والإفريقي بعد حين يسعى ليعمل لنفسه . خاب أمله الآن فى الذين وعدوه الجنة ، وما قدروا عليها . أنا واثق أن كلاً منهما سيعمل على أن يقيم مؤسسات أخرى غير تلك التى أقامتها الفئة التى تسلمت الإستقلال وهذه المذاهب والجيوش التى تسلمت منها . كلها عجزت عن التوفيق بين كبرياء الناس وحاجاتهم . المنشئات التى تسلمت الإستقلال أشاعت القنوط فى النفوس . التى تعمل الآن تُشيع الخوف أبداً على حصان ، وأنت راجل .

على النحو الذى تعلمت أوربا من عثراتها وتجاربها ، سنتعلم نحن أيضاً . نُبدع المنشئات التى تتسق مع خبرة الأسلاف منا والذى خَبره العالم حولنا وربما طال تعلمنا ، سنعلم بعد وقت أن الذي إستطاعه المبعوثين الإفريقيين والمبعوثون العرب فى أديس ، القاهرة ، الرباط ، داكار فى وجه هذه الصعاب التى أتيت على القليل منها ، يحمل الواحد على الظن بأنهم حين يجلسون خلف مُرسِليهم يوم اللقاء العربى الإفريقى الكبير لن يعجزوا عن إتمام الرسالة التى تصدوا لها . سيُصِيخ الرؤساء لنصحهم ففى أذهان الرسل دقائق كثيرة عن كل رأى فى الوثيقة التى سيبحث الرؤساء والملوك ، وبعيدٌ

ألّا تسود المعرفة على الهوى والغرض أو على عزة السلطان الفرد . من أجل هذا أحب لنا أن نعرف مظاهر إخفاق الندوة الحولية ، ونقف من بعد على أسباب تلك المظاهر ، وسنجدها بضعاً من بنيان المنظمة لا عِوَجاً فى مفهومها . مثلها فى هذا مثل الجامعة العربية العجز فى البناء لا فى الفكر الذى أوحى بالمنظمة ، ولا الفكر الذى أوحى بالجامعة ، ولا فى الرجال القائمين على الجامعة أو المنظمة ، وسترى هذا حين يتقدم بنا الحديث ، العقم فى التطبيق لا التفكير .

* * *

نقف عند الندوة الحولية فى بورت لوى ، موريشص ، كما وقف غيرنا وانتهى مما رأى وسمع لنهايات أذاعها كثيراً ونشرها بكل سبيل حتى جزع الناس على المنظمة وكان حقاً أن يجزعوا ، فما غمط الكاتبون رجلاً فى الندوة مقداره ولا حرّفوا الكلم عن مواضعه . لا يحتاجون ذاك ، الفكر الدقيق يعين اللُغة على أن تقول أقذع الكلام فى غير جموع . ما عندى ما يحملنى على الريبة فى الذى قالوه فأوحوا للسامعين والقارئين أن الندوة الثالثة عشرة كانت أول الوهن فى المنظمة وما عندهم ما يحملهم على التزييف ، إنهم يدفعون عن منافع لهم ، وإن غاب ذاك عنهم وهم يكتبون .

أنا أجزع لكى لا أقول مع القائلين هذا أول الوَهَن . أجزع حين أستعيد فى ذهنى بعض الذى كان . مثلاً قعد عن الندوة الحولية للرؤساء إثنان وأربعون رئيساً . راح ستة ، وما كان فيهم كثيرون من أهل الكلمة الفصل ، صحيح أن نيريرى كان هناك وهو واحد من الأدباء المؤسسين ، وأحد ممن علمت إقتداراً وذكاءً ومرحاً ، وتعرف لا ريب أن أشاغيله الوطنية والمحلية فى ذلك الشطر من القارة ، تستغرق إهتمامه . بعيد أن تكون إفريقيته همه الأول الآن . وصحيح أن كاوندا كان هناك ، وهو واحد من التابعين بإحسان لا المؤسسين ، يشرك نيريرى همومه ، إنه يعيش مثله قرب نار شديدة اللهب حول داره ، وداره هذه الأيام ، ما تلك التى عرف حين وُلّى قيادها . تغيرت حالها السياسية منذ فقد سيمون كابوابى ، ذراعه اليمنى أيام كان يعمل الإستقلال . أقبل على هارى نكومبولا وكان قد جفاهُ منذ سنين ، رفيقاً بديلاً لسيمون ذى العصبة وتاريخ النضال ، فإذا هو حطام شخص لا يصلح لرفقة سياسية مُقاتلة . تكاثرت هموم كاوندا الآن ، تكاثر هموم نيريرى .

إن قعود الرؤساء عن الندوة أشبه الأشياء بصاحب دار يغيب يوم يجىء من دعاهم . السكرتارية العامة للمنظمة هى أداة رؤساء دول المنظمة وحين تبعث لهم

بالوثائق ومكان الدعوة ، لا تصدر إلا عن الرأى الجميع للرؤساء ، تذيعه بينهم فى أقطارهم العُدة ولا يعدو هذا الذى تذيعه جِماع رأى الرؤساء كيف لداع إذاً ألّا يكون حيث دعا الناس ؟.

للذين يجزعون كل الحق . أنا معهم ، لكننى لا من أقول هذا أول الوهن . لنمض نُحصى بعض عناصر أُخر ، تدعو الواحد للجزع . لا تدعوه للقنوط . على الأقل أنا .

* * *

قضى الوزراء تسعة أيام يتحاورون ، لكنهم ما التقوا عند شىء يحسن السكوت عليه فى أمر ذى خطر كان أمامهم . وضعوا الأمور بين يدى الرؤساء . كما هى ، يطلبون منهم النورَ فى العتمة ، وما كان ذاك الذى أَلِفَ الرؤساء أَلِفوا أن يلقى وزراؤهم بعض ضوء على الطريق يهتدون به ، لا يقيدهم الضوء ذاك القيد كله ، ينير الطريق كى يروها أوضح حين يختارون طريقاً يحسبونه صالحاً للقارة . أسوق لك بعض أمثله :ـ

تُركت عقدة الصحراء على حالها . ما وجدت عوناً الجزائر ولا المغرب ولا موريتانيا فى الندوة . أنّى لها أن تفعل . ما كان بين الرؤساء الستة من يملك مكاناً معنوياً يسعى به بين إخوة متحاربين . يقينى أن واحداً من القادة الشوامخ لو جاء ، لما عجز عن أن يحمل الإخوة المتخاصمين على أدنى ما يمكن أن نحملهم عليه وهو أن يوقف القتال ظاهره وستوره ، وأن تُمسك الأقلام وتصمت الألسن ، لا يرمى أحد أخاهُ بقبيحة حتى حين . تذهب بعد ذلك الحين ثُلة من الحكماء ، فما أحسب واحداً من قادة البلاد الثلاثة مغرى بالفتنة الدامية وقع من قبل خصام فى الإقليم نفسه أول عهدها بالمنظمة ، واحتوت الخصام لجنة التوفيق إحتواءً ، كان قائماً لليوم . وفقت أحسن التوفيق فى أن تخمد النار ما أطفاتها إطفاء . أخمدتها . ذلك أضعف الإيمان فى سنيننا هذه العوراء . أضعف الإيمان أكثر ما يرويه القادة الكبار . تقودهم من أنوفهم موازين الرعب ، لا موازين غيرها ممكنة ، وما هذا بالجديد عليك أو علىّ . أنجح الدبلوماسيون على مر العصور ، هم الذين حملوا الشعوب على أن يهادنوا ، طريق السلم الدائم غير ميسورة ، اللاهث وراءها يطارد السراب .

تصدت الندوة للخصام الذى لا يهدأ بين الصومال وأثيوبيا ، ويخيل إلىّ من جماع ما أسمع ، أنها ما وفقت حتى للذى وفقت له المنظمة من قبل ، حين أنابت عن نفسها بعض أعضائها لتسعى بالخير بين الفريقين لن يدعى أحد أن اللجنة أتت بما لم تستطعه الأوائل . الأوقادين قضية عَصِية ، ومصير عفار وعيس قضية تمس الجانبين

مَسّاً غير رفيق كأختها الأوقادين عصية . وفقت تلك اللجنة بعض وقت ، لأنها ما أرادت غير التهدئة أدنى مراتب الدبلوماسية ، فما هناك حل لهذه العقدة فى الإطار الوطنى الذى يسود المنطقة وبعيدٌ أن ترى المنطقة إطاراً قومياً فى عهد نتخيله فى قابل قريب ، والنفوس عكرة على أيَّة حال . الأثيوبى مزهو بسلاحه وعدده . والصومالى ملء بأمجاده القديمة ، يشق عليه أن يُحمل على ما لايُريده . إنه إبن محمد قران ، الذى إخترق هضاب ووديان أثيوبيا بسلاح وعتاد ورجال ، تجمعوا حوله تحت راية الإسلام . إن زهت أثيوبيا بثيودرس ، لاحتها هى بمحمد . لا مخرج إلا أن تتغلب فئة على أختها بالسيف ، والحرب هناك غير بعيدة ، لكنها لن تنتهى لشىء .

ما وجد الرؤساء ولا الوزراء سبيلاً لعيش حتى كاره بين يوغندا وكينيا دعك من ود تقتضيه منافع شعب يوغندا الذى لا يملك رئه يتنفس بها الهواء النقى إلا عبر الأراضى الكينيه فى مرفأ ممباسا ، على الساحل الكينى . وتقتضيه منفعة مجموعة شرق إفريقيا التى تتمزق تحت ضربات المنافع الوطنية فى دار السلام ونيروبى وكمبالا ، والمصالح الوطنية تتحول أكثر الأحيان لشهوات سلطان عند الأفراد ، يصعب أن ترى المنفعة الجميع .

* * *

أدى إلى الجزع من هذه القضايا العصية الثلاث ، أن قادة جناحى التحرير فى زمبابوى ، راحا الندوة يحملان حقائب القتال اللفظى بينهما . أسمع أنهما شتما وَتنقَّصا بعض .

حركات التحرير فى كل مكان عاشت هذه الأزمة الآن وقبل الآن . عاشتها أوربا قبل إفريقيا حين وقفت ضد هتلر .

عرفتها الصين وعرفتها يوغسلافيا حين قالت إنها اشتراكية على نحو لا يرضى طرائق الإتحاد السوفيتى . لها دين وللإتحاد دين . غير عجيب الخلاف العجيب أن يخرج به أطرافه الذين يريدون أن يعززوا قدرتهم على التخلص من النفوذ الأجنبى إلى الساحة الكُبرى حيث تجمع القوم يسائلون أنفسهم كيف يُعينون تحرير زمبابوى . رمى الجناحان بعضها بعضاً بكل قبيحة فى الذى أسمع ذاك فى وقت حملة السلاح فى الغاب والكهوف ورؤوس الجبال يتساقطون دماء حارة من وقع قنابل السلاح الجوى ورصاص البنادق التى إقتطع لها البيض مزيداً من المال شهرنا الماضى يونيو .

يفزع الواحد . يفرق . يخاف أن يعود قادة التحرير مائة سنة وراء حين كان الماتابيل قوة طاغية ، تخيف الماشونا . فى القياد رجال من هؤلاء الذين إحتربوا شعوباً وقبائل ، ما وقفت بينهم الحروب ، إلا حين إغتال سيسل رودس بلادهم كلها إغتيالاً واذهب سلطان الماتابيل ، ومقاومة الماشونا لهم . ثم ولى الأمر هو وأهله من بعد ، ما بقى للسود بعدهم أمر .

* * *

هذه وقائع ما ترامى إلينا حتى الآن وقد تواترت . لا سبيل لواحد أن يلوذ بآماله إلى الكذب . لا أعتب على معارفى الذين لوحوا بأذرعهم فى وجهى يقولون لى ، على عينى غشاوة من ماض بعيد ما عاد معنا الآن . أرى الورود لا أرى الأشواك ، يعززون قنوطهم هذا بروايات أتتهم عن عواصمهم الإفريقية عن الذى كان بين أعضاء الندوة ، من إقتتال لفظى يرون معه تجاعيد فى وجه المنظمة وهى صبية ما عدّت الثالثة عشرة من عمرها . أفهم إحساسهم . «الشباب جُحمة من نار» . الكمال أجمعه «ما فى زهر» كما يعبرون . يحاجك هذا الشباب حتى تكاد تهم بأن ترى الذى يرون . قال صديق كان فى قابل العمر والمنظمة تسعى لتكون ، أنه يرى رومانسية فى الذى أقول عن ضعف المنظمة وقوتها . ما هناك قوة . يحيط بها الضعف كل جانب فى الشباب .

ما كان على غافلاً حين تحدث عن جُحمة النار فى الشباب كان يصدر عن ذاته . صديقى واحد من أشباه من أوحوا لعلى الفكرة . أفهم إحساسه وأقدره «الخط الرومانسى» فى فكرى أعترف به . أجد مشقة فى العيش به فى عالم يحقر الرومانسية ، يقول أنه «واقعى» لا عليك منه . رومانسيتى ما حمتنى من أن أرى التجاعيد . إنها أعجز عن أن تخفى عنى الشقوق المخوفة فى الجمع الذى تنادى للندوة الثالثة عشرة لرؤساء دول المنظمة رأيت مما سمعت وقرأت أن الأمر بين القوم قد مرج . أيامى الأول تلح على إلاّ تجاعيد تقول لى هذه هى المنظمة التى عرفت منذ جاءت المنظر الإفريقى أيامى هذه تقول لى أن المنظمة لم تجد نفسها . ظلت مكانها الأول وإفريقيا حولها تغيرت ، لأنها بعض من العالم حولها . هذا حق وذاك حق ولا يستحيل أن يعيشا فى وئام معاً فى ذهنك أو إصطكاك رومانسيتى لا تهاب أن ترى الواقع ، لكنها تراه فى إطارها هى ، لا إطار الضيق والقنوط .

* * *

دعنا نمشى قليلاً مع الصديق الحانق على الندوة الحولية . ستجده يرى بحسه كل الذى تراه من نافذة عقلك . أسوق لك الشواهد على صدق حسه فالحس أداة من

أدوات المعرفة، يخطيء الذين لا يرون غير العقل أداة للمعرفة. مثلاً أجمع الذين كانوا فى بورت لوى : موريشص ، على عون المقاتلين فى زمبابوى من أجل الحرية . لصديقى الحانق كل الحق إن زعم لك أن الندوة انفضت على غير شىء ، إن أكدّ لك زعمه هذا يقول إن الذى أجمعت عليه غير جديد . أجمعت على عون المقاتلين فى غاب وكهوف الوسط الجنوب فى القارة وكانت أجمعت عليه من قبل . أنا معه ، لذا لن أقف عند هذا . أحب لأقف عند النقطة الأخرى التى أجمعوا عليها ، وهى دعوة العرب ليحجبوا النفط عن جنوب إفريقيا وزمبابوى ، فقد عتب بعض العرب على هذا . وحنق بعضهم عليه . قال العاتبون أنّ دعوة غير مدروسة كهذه الدعوه تضع فى يد المفسدين بين العرب والإفريقيين ورقة النفط من جديد ، ليبدئوا ويعيدوا قالتهم أن العرب أفسدوا إقتصاد العالم كله وإقتصاد العالم الثالث بالذات ، يقول العاتبون هذا فتذكر وأنت تسمعهم عويل هيوبرت همفرى(*) فى برلمان الولايات المتحدة عن «شيوخ العرب» ، ينطق الخاء كافاً يُمعن فى التحقير يعيد لأذهان سامعيه صورة العربى فى أفلام زمانه وكتب أيامه ، فالنتيو وتورين .

وتذكر مع همفرى الأبيض سفه الشيخ شارلز دقز الأسود فى نيروبى . وقف يعظ السود فى القارة يقول لهم ألّا يركنوا للعرب إنهم يكنزون الذهب والفضة ، ولا يُعطون لخبىء فى نفوسهم وبمقدار . ليطمئنوا لأصوات دول إفريقيا فى الندوة العالمية ، وتذكره يطوف القارة الإفريقية حوله رجال ونساء من أهله السود فى الولايات المتحدة . كثيرون يقولون إنه جعل من سواد لونه قضية يحتضنها لتقدمه السياسى فى بلده . أسائل عن الذى يدعوه ليقول الذى قال عن العرب ولا أعرف له يداً على إفريقيا يدل بها على الأفارقة غير الحديث المعاد . لا ألوم العرب العاتبين على قرار الندوة بحجب العرب عن البيض القاعدين فى القارة . فى ذهنى هذان الرجلان يخرفان بما يعرفان أنه ضلال ، وما أعانهما الخرف على شىء مما يبغيان من تقدم سياسى . همفرى الذى اتخذ النفط عكازة يتكىء عليها «ما عَمّر عماراً» عُمره فى السياسة الأمريكية لعق حذاء جونسون حتى أصاب لسانه الهزال . يرمى العرب بكل خطيئة ، ولا يكسب أصوات الناخبين اليهود . دقز الذى يلهث ليكون شيئاً إن كسب الحزب الديمقراطى إنتخابات الرئاسة عامنا القادم ، لن يكون فيما أحسب ، فهو أسود يعيش عيشة البيض ، بعيد عن متاعب أهله الأقربين ، والإفريقيون لا صوت لهم فى إنتخابات امريكا .

أحب للعاتبين من العرب أن يذكروا أن شتم أشباه هؤلاء لا يغير السب تحسنه الإماء ، كما حقاً قيل .

* * *

(*) همفرى مات ودفن فى السجن لأنه سرق .

هذا عن العاتبين من العرب . الحانقون على قرار حجب النفط العربى عن البيض القاعدين فى القارة الإفريقية ، لهم منطق وجيه تحترمه وتقدره لكنك تخشى أن ينتفع بالمنطق العربى الدقيق سعاة الفرقة بين مال العرب وثروة إفريقيا . فعلوا هذا قبل ثلاث سنوات حين تساءل العتيقى يقول أين كان اللاهثون نحونا هذه الأيام ، حين كنا نعيش على تجارة لا تفيض ، لا تكفى حاجة العيش كله ؟ قال : ما لهم يريدون لنا أن نكون وحدنا سدنة العالم حرّفوا كلامه الصادق الخالص أذاعوا وأشاعوا هذا الشطر من حديثه ، وسكتوا عن شطره الآخر الذى قال فيه إنا سنعمل من أجل ذوى القربى فى الدين والعروبه وسنعمل من أجل إفريقيا . سكتوا عن الشطر الآخر هذا عامدين فى الذى أستقرىء . أشارت صحف وإذاعات لذاك الشطر الأول من الحديث مرات ، ولم تقل مرة واحدة أن وزير المال والنفط نصّ نصاً على عون إفريقيا ، وأنسوا الناس بقدراتهم الخادعة أن بلاده كانت من أسبق البلاد على عون إفريقيا ، على الصعيدين الثنائى والدولى ، وأكاد أجزم أن وسائل الإعلام عندنا فات عليها أن أشباه شارلز ذقز وهيوبرت ، دعاة النفرة بين العرب والإفريقيين وجدوا فى هذا الذى نقلته الصحف ذخيرة لهم نافعة فى مآربهم الخاسرة . فات على وسائل إعلامنا أن تقول الذى قالته تقارير الثقاة وهى بصدد عون العرب لإفريقيا العالم الثالث . قال هؤلاء إن أهل النفط فى البلاد العربية «أكثر الناس عطاء للبلاد النامية ، ذاك لأنهم يوفدون صندوق النقد الدولى والمصرف العالمى كما لا ترفده أيّة مجموعة أخرى من البلاد الثرية» فات علينا أن مجالس الأنس فى بعض البلاد الأوربية تقول عن العرب أنهم «روبن هود» هذا الزمان ، وكان روبن هود فى الأساطير الأوربية يغتصب الفائض الذى يرفه به الأثرياء ليطعم ويكسو الفقراء مثله فى هذا مثل الصعاليك العرب . ودعنا من المجالس فهى غير ميسورة لغير القلة . وسائل إعلامنا لا تفعل من أجل أهلها حتى ما تفعل الديلى تلغراف ، التى قالت منذ شهور «ما عرف التاريخ عبر مساره أمما كريمة بما تملك من ثراء لنفع أمم أخرى ، كما تفعل دول النفط هذه الأيام» .

والديلى تلغراف لا يمكن لأحد أن يقول إنها مفتونة بالعرب ضيقة بإشتراكية اليهود ضيقها بيباس العرب .

* * *

لقد بلغ الإعلام العربى سن الرشد ، لكنه مُنكفىء على نفسه ، ما عادت قميئة الحجم والصورة ، والقائمون عليها أهل لأن يردوا عن العرب قالات اللئام . غير قلة من صحف بلادنا مع ذلك فى شغل عن الذى ينفع فى المدى الأطول . تلغ أكثر الأحيان فى لجاج أجوف عن حدود ذلك الإقليم ، أين تبدأ أو أين تنتهى ، وعن مياه هذا الإقليم ،

كم مقدارها وكم تأخذ وكم تَدَع . تلعب لعبة الساسة ، وكان حَرِيّاً بها أن تنير الطريق لهم ليروه كله لا بعضه كما يفعلون . معنية بأن سيدنا طار ، وقائدنا «رَكَّ» ورئيسنا لقى سفير واق الواق وكان جديراً بها أن تُقدم قليلاً ، أن تجسر فلا سبيل للقلم أن يضىء إن لم يُقْدِم . أصحاب الأقلام عندنا أكثرهم شباب فى عمرهم بقية يستطيعون معها أن يقدموا ، فنحن فى سباق مع الغرب ، وإن شئت قلت صراع . يريد الغرب ليبقى حيث كان فى الصدارة وحده ، يحول دون أى قادم . يذيع النكر عنا كل مكان فى القارة الإفريقية ، ومقاتلها كثيرة إن يقظت لها الأقلام عندنا ، لا تسب ، لا تفحش لكن ترد الفرية بالحقيقة . البينة بالبينة وفى الغرب عدول كثيرون يلقون من أجلنا عنتاً بعض الأحايين ، وعلى أقلامنا أن تعرف لهؤلاء يدهم علينا وترد إفتراء المفترين وجسارة الرقعاء .

* * *

لم يزعم واحد أن كل العرب يفعلون كل ما يقولون . إن مال العون الفنى لافريقيا ما زال ينتظر بعض الذين أحجموا عن دفع ما أرتبطوا به فى الرباط ، وكذلك مال العون على زيادة سعر النفط ، ورأس مال المصرف العربى وثلاثتها لا تعدو ملايين فى طوق الذين وعدوا أن يدفعوا أكثر منها . يخاف الواحد منا ألاّ يستجيب القادرون لدعوة المصرف العربى للتنمية الإفريقية حين يجتمع المسئولون بعد شهر ، فالذى أحجم عن بضعة ملايين بعيد أن يرفع رأس مال المصرف لبليون وهو المبلغ الذى يقدر العارفون بحاجات إفريقيا وحاجات إفريقيا هى فى الواقع منافع العرب ، إن لم يكن اليوم ففى الغد القريب . إن هذا الإحجام يشير إلى أن القادرين مالاً يضعون فى يد الشانئين ورقة عليها «ألم نقل لكم ، لا رباط بينكم وبين العرب» أكثر من هذا . يمكنون لغيرهم من أرض قارة المستقبل ، فنحن كما قلت فى سباق مع الغرب وسباق مع الشرق ، وثروات القارة تلهب طموح الطامحين كما فعلت منذ ليوبولد ملك البلجيك الذى قال يوماً لخاصته إنه ينفق على اكتشاف الكنغو كى يستحوذ على سـريحة من تلكم الكعكة الشهية ، إفريقيا» والكعكة يا سيدى لمن يقدم اليوم قبل غد ، ويقدم واعياً بأن إفريقيا اليوم يقظة ذكية ، ما هى إفريقيا ليوبولد ورودس . إنها تسأل لا تطيع تعطى للذى يجى يعمل معها ، لا للذى يجىء يتلمظ يشتهى أن يكون نصيبه من الكعكة أوفى ، ونصيب الإفريقى فتات . الإفريقى يحارب اليوم قلاع النفوذ الإقتصادى وهى أعتى من قلاع النفوذ السياسى، وهو يشقى ويألم فى هذا الصراع، فلا يلومنه أحد إن صدق بكل الذى يسمع عن «إمبريالية العرب» وهو هذر لا يرده عن العرب أهله كما قُلت .

نسيت الندوة وهي تدعو العرب كي يحجبوا النفط عن روديسيا وجنوب إفريقيا أن العرب ما قعدوا عن هذه الدعوه حتى مرة . ما خذل العرب إفريقيا . خذلتهم شركات ضاقت بها حكوماتها . ما نسى الناس قولة إدوارد هيث وهو يصف السُبل التى تبعتها شركة من كبريات شركات بلاده . قال «ذاك وجه الرأسمالية الشائه» وما كان رئيس وزراء بريطانيا على ذلك العهد إلا واحد من سدنة الرأسمالية . طلب إلى برلمانه أن يُكوِّن لجنة تفحص السبل التي يروح بها النفط لروديسيا ، فإذا بتقريرها يجيء شاهداً على ضيقه بذاك الوجه من الرأسمالية . عرف الدهاة كيف يغرقون إثمهم التجارى فى ملايين من الكلمات تعذر معها على القضاة أن يقولوا إنهم خرقوا قانوناً بعينه . ما تعذر عليهم رغم هذا أن يتحسروا على الدرك تنزل إليه هذه الشركات فى سبيل الكسب ، صدقوا مع أنفسهم ، كانوا قضاة عُدولا .

وقصة موبيل فى الولايات المتحدة . أشوه من قصة لونرو فى المملكة المتحدة وتكاد أن تكون واحدة من روايات هولمز . تهامست دوائر المال والتجارة منذ شهور عن شركات لا وجود لها ظلت طوال عقد كامل تمد روديسيا بكل الذى تحتاج من نفط عبر جنوب إفريقيا ولا أعرف ماذا ستجد لجان التحقيق فى الخزانة الأميريكية والأمم المتحدة . فى مذهلات هذه الشركات التى إستطاعت العمل الخفى عشر سنوات كاملات حتى كان شهرنا الماضى حين أذاعت كنيسة من الكنائس المقاتلة فى جنوب إفريقيا وثيقة تقول أن كل قوانين الحجر التى فرضتها الأمم المتحدة والولايات المتحدة مستباحة تحت سمع وبصر حكومة البيض فى جنوب إفريقيا . يذهلك ما نشر حتى اليوم عن هذه الوثيقة . عدد هذه الشركات وأسمائها العُدّة وما هى غير موبيل . عبقرية فى العبث بالقانون والخلق ، إنتصرت عليها مع ذلك عبقرية رجال ونساء أنذروا نفوسهم لضرب الشر قضت جماعة سرية إسمها أوخيلا ، وأكبر الظن انها إفريقية ، سنين تتابع حيل هذه الشركات وترصدها أدق رصد ، وحين قدمت بالذى تجمع لديها أسلمتها لكنيسة إسمها كنيسة المسيح وتولى رجالها الأمر بعد ، وذات صباح أفاقت الولايات المتحدة من نومها ، ويقظت الأمم المتحدة وغير بعيد مع هذا جمعية إن تعجز القوانين عن أخذها بجرمها كما وقع فى المملكة المتحدة .

* * *

أى عتب إذن على العرب ؟ إنهم يستجيبون لدعوة حجب النفط ، ولكن كهنة الخفاء والمال أبالسة تعجز أمام قدراتهم الشيطانية .

أجدنى غير قادر على مقاومة الحديث عن وسائل إعلام العرب ، غير قادر على مقاومة العجب من كتابنا الذين يروحون أوربا وأمريكا بعد أن تدق أعناقهم فى مُصَانَعَة سفارت

الدول الأجنبية ليعودوا يكتبون لنا فى مفكراتهم ما لا يليق بأسمائهم الكبيرة . سألت واحداً من هؤلاء عن أحاديثه . ما الذى هداه لضلال فاجرة كتب عنها . أما وجد فى الولايات المتحدة يمتع ويفيد ، وقد قضى شهوراً هناك ؟ قال إنها ظاهرة شغلت التلفزيون الأمريكي وأنه كان يقضي ليالٍ يشهد التلفزيون . لو كان ولدا لما عجبت . لو كانت حاجتنا لمعرفة الجريمة مُلحة لماً عجبت . تحسرت على صبا الصاوى حين كان يكتب لنا عن باريس ونحن صغار نلتهم كل كلمة يقول . ما عاد مكان للكتابه العاجلة لا نفع فيها ولا ضرر ، فقد نضج القارىء العربى ، ويستحق أكثر مما يفعل به الكاتب العربى . أعنى يفعل به . ليس من العدل أن يَرُوح واحد يحدثه عن شوارع بولندا ، وآخر عن ممرضات لندن وثالث عن لقائه أدباء أمريكا ورابع عن الديمقراطية المسئولة . لولا الحياء لقلت لهؤلاء روحوا بيوتكم . خير أيامكم وراءكم إفسحوا الطريق للشباب الذى يعيش عذابات أيامنا . إنكم أعجز من أن تجددوا أنفسكم ، يبست فيكم الشرايين .

وسائل الإعلام حبيسة الخوف ، تخشى أن تُخاطر ، وأصحاب القلم الآن يسدون الطريق على الذين دَربُوا على أيديهم . بعض الأئمة عندنا يثيرون الشفقة . تحدث الحكيم عن أيام ناصر وحين تصدى له غيره قال لندع التاريخ يحكم ، وأراه يتحدث اليوم عن الطغام فى العالم حديث كولبس عن أمريكا لو تحدث كولبس . ماله لو صمت أو تحدث عن الذى يعرف ؟ إذ لكان ذاك الرجل الأول الذى علمنا منه ما لم نكن نعلم عن المسرحية والرواية على أيامنا الأول . تعيس الإعلام العربى تعيس القلم العربى . الذى يلح على البقاء ، وقد فَنِىَ . قال لى صاحبى وهو واحد من أصفيائى الذين أحب ، قال إنى أطلب عسيراً من القلم العربى قال أنى أضجره وأملّه حين أبدى وأعيد أنقذ الذى تقول صحفنا عن شيخنا الأمير الذى وهب الفقراء دنانير ، أميرنا الذى يعمل كى يخضر الصحراء ، قائدنا الذى هزم الأحزاب وحده ، أبونا الذى يقول أنه واحد منا ، لا قهر بعد اليوم والقهر قائم .

صدق صاحبى ولكنى لا أعرف كيف أوفق بين الواقع المُسلّح بالثرثرة وأدنى المثال الذى يريده الواحد للقلم . كل الذى أراه حولى يقودنى الطريق سَدُودة . خُذ مثلاً رُسُل فلسطين فى بلادنا العربية . وفى عواصم إفريقيا السائرة مسار العرب لأنهم مسلمون . طفتُ كثيراً وما رأيت واحداً منهم يعنيه ما جاء له . رأيت شباباً يرتزق . رخاء العيش همه . فلسطين لا تؤرقه . كما يؤرقه عيشه ، حين يُباح الكلام ، سأسوق كل دقائق ما رأيت من الذين جعلوا من الدعوة لفلسطين دعوة ضدها ، كلما كسبت المقاومة شبراً ، أضاع المرتزقة متراً المرتزقة كلمة حادة ، أصف بها رُسل فلسطين لكن إخوتى شقيق ووليد ودرويش وفاروق ومحسن وأختى رندة يعرفون أنّى أنطق عن حرص على صفاء الدعوة . وتجىء فى بالى فُتُوة توفيق باعطوره ، رضوان الله عليه . ما أكل

ولا لبس غير الخشن ، ولا ذل عند باب كبير . تجيء فى بالى نعومة شيخنا توفيق مدنى يقنع بوجوده ، شخصه ، إن جاز تعبير كهذا . أرقَد الله أيامه ليكمل ما يعرف له فى مكتبات الجزائر واسطنبول . دعا كلاهما وأوف الذى وعد أهله . كنت إن رأيتهم حسبتهم دراويش فى محراب عزة الجزائر . بعض رسل فلسطين فى حاجة لورقة من كتاب رسل الجزائر ، المدنى وباعطودة وغيرهما من الرجال ذوى الهِمّة والمِنّة .

* * *

عثرات إفريقيا نحو العرب تهول ، لكنى لا أقْنَط من يوم فيه يعرفون خطايا بعض رسل فلسطين تفزع . أنا منهم أقنط . عثرات إفريقيا أفهم مصادرها وواثق أنّ يوما سيجيء يعرفون فيه إن صورة العربى فى ذهنهم غير دقيقة . صَوّرها الأوروبيون منذ زمان وتلح باقية . أجزع من فهم العربى بالإفريقى .

الإنسان الإفريقى يعرف أنّه لا يعرف وإن كان يرتاب فى العربى الذى إسترقه يوماً من الأيام .

هذه خواطر تسندها تجارب وحقائق تاريخ ، ولكنها تشير إلى أنّ العرب سيلتقون مع الإفريقيين وإن تعسر طريق اللقاء وطال ، وتعسر طريق إستقلال فكرنا العربى دعنى أمض فى الذى أنا بصدده عن الجامعة العربية والمنظمة الإفريقية ما الذى يحول دونهما والسعى لتعاون إفريقيا بثرواتها الكثيرة مع المنظمة العربية بمالها الكثير . أريد لك أن ترى رؤيتى جذور نشأة المنظمة سترى حين نقف عند تِلكُم النشأة عثرات صحبت النشأة ، باقية معها لليوم .

عثرات أيضاً تهول لكنى لا أقنط من نْ نُقلِّل من أثرها ، عرباً كنا أو إفريقيين . لن نستطع هذا إن لم نقف ننعم النظر فى وجوه بعض الرجال الذين أسميناهم الآباء المُؤسسين . جديراً بنا ونحن نسمع من يقول إنّ المنظمة تتهاوى من القواعد ، أن نقف عند الفجوة التى كانت تفصل بين المطامع السياسية للرجال الأوائل . وأختلاف أمزجتهم وثقافاتهم . بعبارة أوجز رُؤاهم كلها . إن الذين تنادوا للمؤتمر الثالث عشر الذى أثار هذا الحديث كله ، أخلاف أسلاف ما عرفوا غير حرب بعض ، ولا ألتقى أكثرهم ببعض إلا هذه المرة فى أديس كانوا يحدقون فى بعضهم ، يستوثقون مما سمعوا عن بعض . ما كان بين واحد منهم وأخر إلاّ الرابطة الجغرافية ، إلاّ أنهم ينتمون لإفريقيا . إنّ الذين تنادوا للمؤتمر الثالث عشر ورثه أسمال لا تستر العُرى كله ، الأمر الذى يدعوك أتعطف الذى كان بينهم من مرج وشقاق . أكثر من هذا وأخطر . ما كان اكثر الآباء المؤسسين ممن يستحقون عناءنا . ساقتهم القلة المُؤمنة ذات الرأى والنهج

والنظر السياسى المُحيط ، لكنى لا أُحب لنا أن نذكر النقائص والعيوب . فقد كانت هناك بُطولات رأيتها بعينى لأنى كنتُ هناك فجر ذلك الميلاد . كنت هناك فجر الخامس والعشرين من مايو ، حين جاء الجنين يصرخ ، لا مكتمل البناء لا مكتمل البصر . كان عسيراً الميلاد .

فرح به الذين أرادوه كذاك ، جاء على النحو الذين يحبون غير ذى أثر يُخيف العاجزين . فرح به الذين كانوا يريدونه أكمل خَلقاً وأفعل أثراً فى مصائر القارة ، عرفوا أنهم إن ألحوا على وليد بناب ، فقدوا الوليد والناب . وكان مايو نفسه حَفِيّاً به كآبائه هؤلاء ، فهو شهر الرذاذ فى أثيوبيا ، كان حَفيّاً بالذين خفوا لأديس من ثلاثين عاصمة أخرى ، تلك كانت عُدّة الدول الإفريقية المستقلة آنذاك . فرح بالوليد قادة ما أرادوا المنظمة إلا تُقيه من «هُوج» الشباب ومتاعب الأجراء والطغام فرح به الذين أرادوا سلاحاً ماضياً لتحرر سائر القارة وأداة تنفذ ما يرون من فكر إقتصادى وثقافى ، وما تيسر لهم هذا كله . قالوا خُطوةُ مسيرة لهذه الغايات ، والطريق طويلة . سترى الذى أعنيه حين نمشى سوياً مع خواطرى هذه التى أسوق بين يديك . وَلأبدأ حيث بدأ الطريق أريد لأبدأ الحديث حين وحيث بدأ المسار لأديس .

* * *

ما كان سهلاً المسار . كان عسيراً . كان كثير التعاريج . ظل قادة إفريقيا والنخبة المستنيرة فى القارة يحاور بعضهم بعضاً على بعد يُحاذرون لا يلتقون . كان هناك جيل معاصر مقعدة الرباط : ناصر يرى فى الوحدة درعاً ومصيراً كتب على مصر . أوضحه قبل اللقاء فى أديس حين كان يتمثل «فلسفة الثورة» يتحدث عن الدوائر الثلاث التى أهاجت عليه بعض أهله فى المنظمة ، وكل بلد فى الغرب ، خالوهُ كلهم شيطاناً مريداً ، يريد ليكون ذاك البطل الذى تحدث عنه ، حين أشار للروائى برانديللو . وكان فى الرباط نكروما ثَقِفَ على يد دى بوا . درب على التنظيم فى إتحادات الطلبة فى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ، وتملى بلايدون ، وماركاس جاكى أنبياء السود ، الدعاة الأول لحريته . ما كان إستقلال غانا يعنيه أول ما يعنيه ، وحدة القارة السوداء حلمه الذى عاش له ومات . وكان فى الرباط سيكوتورى وكيتا ، حملتهما للرباط عيون مشدودة للنجوم ونقاء وشباب وإكمال بناء . تراهما فيذهب بك الخاطر لأبولو أسود . سيكوتورى أسحم لا ترى للبربرية فى شدة سواده هذا أثراً ، يدل على الخليط فى دمه . طيب ميلاده فى كل حركة تصدر عنه حتى فى خطوه ، فى تحيته الباسمة وكفه الذى يحتوى كفك كله حين يحييك وفى ثقته بالذى يقول ، وهو الذى ما عرف جامعة ولا معهداً ، غير جامعة أهله وأسلافه . كان موديبو حميمة وصفيّة ، وئيد الخطو ، خفيض الصوت يصدر عن

إيمان بإفريقيته ، يستحوذ على الرائية بوجهه الأسمر وقسماته النضرة مزيجاً من البربرية والعربية . الوحدة عنده قاعدة الخطو أمام ، حارسة الجميع من زحام على القارة جديد يراه أقتل من زحام عصرنا الفائت .

وكانت هناك فئة أخرى مقعدها منروفيا . جمع بين هذه الفئة عمر طويل قضته تمش على هون ، تعمل مع النفوذ الأوربى ، وما كان هناك نفوذ إلا لها عاشت سنين قبل ناصر ونكروما ونيريرى والحسن وثوار الجزائر . رأت فى هؤلاء بدعاً أنكرته . جديداً ما عرفته فى القارة . خشيت على أنفسها من دمهم الدافق الساخن . أتوا المنظر السياسى بسحر شخصى ، أفئدة الناس تهوى إليهم لا يفقهون كل الذى يقولون ، ولكنهم بهم يؤمنون . على تلكم الأيام أعاد الباحثون إكتشاف كلمة تصف هذه الفئة من الناس : كارزما . أقرب كلمة إليها عندنا (سحر) . كان ناصر يفتن الناس عن أنفسهم لأنه يملك هذه الصفة : كارزما ، وكذاك نكروما ، نعرفها نحن فى المنطقة العربية منذ عرفنا سعد وثروت وتندر الناس يروون عن الجماهير أنها كانت تقول «الإحتلال على يد سعد ولا الإستقلال على يد ثروت» كارزما ، سحر سعد أقرب لنفوسهم من أيّة بركات على يد المُنازعيه سلطانه . كان هذا جديداً على القارة ، وأخاف الشيوخ فيها وأجزع كانوا يسيرون على هون يحسبون أن سيادة البيض قدر محتوم . حَمقٌ أن تصارع القدر المرسل من السماء . تحيا معه حتى يختار هو نفسه يوما يريح فيه فرائسه من قهره وهى وإن أبيتها نظرة للحياة ، لها شِيع وتُبّع .

* * *

ذهلت عن نفسها فئة الشيوخ فى منروفيا وتنادوا يديرون بينهم أمر هذا الإعصار فوق القارة . غَشِيت الأبصار فى منروفيا ، فقد ربيت منذ زمان على أن الأسود يحتاج لرعاية أوربا حتى دهر يطول . ألقى الأوربيون فى روع هؤلاء الكبار أن الإفريقى ما استوى بشرا سَوياً بعد ، وكانوا يؤمنون بهذا ، لا يرون بلادهم بغير معايير أوربا . درجت على أن تأخَذ من أوربا ما تختار هى أن تُعطيه . كانوا الشيوخ والصفوة والقادة . تشبعهم أوربا كلمات نقيه كتلك التى فى وثائق برلنى ، ويحسون بالرضا عن أنفسهم وعن أوربا التى إتخذتهم مطايا لعيشها الرضي الوافر ، وكانت رخاء الريح لهم . ما كان هناك من يشيع تعابير الساسة الجُدد أمثال : الشخصية الإفريقية ، الزنجية ، الإشتراكية العربية كشفت هذه التعابير عن وجهها الشديد اللّمعان سنين بعد أن إكتهلوا ومُلئوا سخطاً على كل جديد .

لا يَعدِل من يرمي هذه الفئة بالخيانة . ما كانت خائنة . ما كانت تعرف من تاريخها القديم ، إلا الذى يختاره المُبشر أو المفتش ، ولا يعدل من يرميها بحقد على

الشباب . ما كانت تحقد . كانت تخاف على سلطانها منهم وذاك مألوف ، طالب السلطان لا يزعه وازع . شهوة فوق كل شهوة كغيرها من الشهوات حينا تنجب وحيناً تعقم .

كان فى هذه الفئة هيلاسلاسى . إنه صانع أثيوبيا الحديثة فى زعمه وزعم من يقولون إنهم يعرفون تاريخ أثيوبيا المعاصر . يقول ويقولون أما كان صوتا فريداً فى عصبة الأمم أثار إشفاق أوربا ؟ كانت إفريقيا كلمه فحسب عندئذ . نفحت جماعات أوربية عنه . بعضها لحاجة فى نفسها لا يعنيها هذا الرجل الذى لا حول له ولا سلطان ، بعضها ذكر حين سمع هذا الصوت المتوسل قراءاته فى صباه فى الكتاب المقدس عن أثيوبيا . فأحس الحنو على الرجل الصغير أنه يمد يده للشمس كالذي قال لنا الإنجيل .

بين حاله التعيسة آنذاك وحال فيصل الحسين مَشَابه . كان عطفاً عليهما من بعض أهل الفكر .كان عبثاً بهما من أهل السياسة . ما كانت القوى القادرة على تلكم الأزمان معنية بهما . من هُمَا نهاية الأمر ؟ كانا رجلين لا صوت يشد من أزرهما فى البلاد التى أتوا يدفعون عنها . يعرفون أن هيلاسلاسى فى حساب من كانوا يقاتلون ضد الفاشيست فى الداخل رجل آبق . وتسمع إن أردت حكايات عن هذا الشرخ فى صورة البطل هيلاسلاسى . وأكبر الظن أن الأساطير بدأت تتجمع من هنا وهناك تُؤلِّه أسد يهوذا حيناً ، وتسقطه مساقط السفلة حينا ، ترفع المقاتلين آنذاك مراتب القديسين . فيصل فى حساب بعض العرب لا يعنى غير آله فى يد أبيه وأسرته . الهدف السلطان . الوسيلة ؟ أيّة وسيلة . والناس رؤى تعترك .

كان جنب هيلاسلاسى رجل به شبيه . أسن من العمر وأوهن في العقل تبمان . كان رئيس جمهورية ليبيريا غريباً حتى على الجمهورية التي يرأس . يحيا نمطا أمريكيا عرفه منذ فتح عينيه على دنياه ، جسده هنا ووجدانه في القارة التي نمَّته . يفكر فكر أمريكا ويحيا حياتها . وبيسراهُ يُعالج شئون ليبيريا مدفوعا مُكرها لا طائعا يفهم . كان من هذه الثلة هفوايت بوانييه رئيس ساحل العاج ، الذي أعده الفرنسيون في ندواتهم السياسية على أيامهم التي يحبون أن ينسوا الآن فنشأ وظل ظهيراً نصيراً لكل شيء فرنسي . من هذه الجماعة ليوبولد سنقور ذو المخالب والأنياب ، لا تراها خلال الدخان الكثيف ينطلق من شعره البارع وفلسفاته الباهرة وختله السياسي وحديثه المتعالم . كل وقت فيه تلقاه . لا يعرف عن شاكا أكثر مما تعرف أنت وأنا . ولكنه صوَّر الرجل تصويراً بلبك ، يسحرك . وكان في هذا من السابقين . سنقور واحد ممن عرفوا كيف يبقون . لا أكثر .

* * *

تساءلت الفئه الواهنه ، الوئيدة الخطى ، العتيقة الفكر عن الجديد الراعد القادم من الرباط . تجمعت لا أقول جُمِّعت ، مبنياً على المجهول ، فأنا غير واثق . جمعت على الأرجح من القصي في أثيوبيا والغرب البعيد في ليبيريا مدوا سواعدهم الراجفة للسواعد الفتية وتدارسوا الأمر بينهم ليالي وأياماً ، خرجت بعدها صحفهم في بلادهم وصحف أثيوبيا تقول ، إن الوحدة الإفريقية التي يقول بها شباب الرباط لا سبيل إليها الآن . هدف بعيد يجيء ثمرة خطوات في التعاون الإقتصادى والتجارى والمالى والثقاف بين بلاد إفريقيا للقادة ـ شباباً وشيوخاً ـ أن يضعوه في خاطرهم ولكن يخطئون إن دعوا إليه الآن ، فالاستقلال الوطنى الذي استعادته البلاد المفردة في القارة ، ما قويت دعائمه بعد .

هكذا كان حديثهم ، كان جماع ما يقولون . شبه حق ولا حق الحق هو أن هذه العُصبة من الكهول والشيوخ ، خشيت على سلطانها وسعت بمنطقها هذا لتُرجيء اليوم المُخوِّف . يهمس في أذنيها الطيعة رسل أوربا أن الإستقلال الوطني ، لن يُبقى لهم مكانهم الكبير وعيشهم الرافهِ كله . خافوا . أخافهم الساسة والدعاة من ناصر يريد ليُعرِّب القارة تُسلم من بعد . نكروما يريد ليكون القائد . صدق قوم وأرتاب آخرون : وارتاب كلهم شر إرتياب .

ثار الجدال بين الفريقين ناعماً ملتحفاً بالمنطق المصقول أول الأمر ، وقليلاً قليلاً إنحدر الجدال لخصام . كان الدعاة في فريق منروفيا وفريق الرباط يفحشون في القول بعض الأحايين ، وكانت أوربا ترقب هذا بفرحة مستورة أحياناً وفاضحة بعض الأحايين ، ذاك لأنها وجدت في اللجاج كوة تهبط منها على القارة . وقد أُخرجت قسراً أمس . كارهة . وكانت تلك السنين تعيش أحر أيام الحرب الباردة .

ومشى الفريقان ، الشرق والغرب ، «هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح» . الشرق يحث جماعة الرباط ، يَعِد القارة ذاك النعيم الذي يعيشه أخلاف لينين وستالين ، والغرب يحث جماعة منروفيا ، يَعِد القارة تلكم الحرية التي تعيشها ديمقراطيات الغرب . رأى الغرب في جماعة منروفيا عصاة يتوكأ عليها ، يستعيد ما فقد من عصاة وسلطان ، وفي حرارة اللجاج الثائر بين القديم الماكر ، والجديد خالص الطوية في القارة ، ذاع في القارة وخارجها أنّ القديم ظل لواشنطن ، وأنّ الجديد ظل لموسكو ، وما كان كذلك الأمر . تطوعت واشنطن وتطوعت موسكو ، أُتيا ما دعاهما أحد ، ووقع نفر من إفريقيا فرائس لدعاة من أهل الحلاقيم يوحون بأن أهل الرباط دعاة الشيوعية العالمية ، وأهل منروفيا عدلون قسط دعاة الديمقراطية الغربية .

* * *

أشفق الجانبان حين سرت هذه القالة بين الناس ، وحين اتخذ فراس الدعاة من كل فريق تعابير سياسية ، فيما يقولون يكتبون ، تكاد هذه التعابير أن تبرز ما ذاع عن الجماعتين وانتشر ، التعابير لصيقة العقائد . الكلمة فكرة . العبارة مذهب . كانت إفريقيا محدثة التعابير . ما كانت عندها تعابير سياسية من إبداعها هي . كانت تعيش على ما ثقفته في معاهد وكتب وصحف أوربا القارة عهدنا ذاك ما كانت اتخذت الإفريقية سمة سياسية . كان كل حزب بقومه فرحاً . وما خطر للأشطار أن تبتدع الكلمات ، على تلكم الأيام . والكلمات فكر . كان الواحد منا يدرك دون إعمال فكر أية جهة ينتمى كاتب ان قرأت له ، أو خطيب إن إستعمت له . الكلمة ، الفكرة ، لكل كلمة شخصية . كانت تعابير (الحرية الفردية) و(الإستعمار الحديث) وأشباه هذه التعابير قد وجدت سبيلها للقارة من أوربا ، واتخذها دعاة (اليسار) ، عُدَّة ، كما اتخذ دعاة (الحرية المطلقة) وشبيهاتها من التعابير السياسية وظنوا أنها هي التي حملت أوربا والولايات المتحدة ، وبأجنحة من نور إلى الإزهار ، إقتصاداً وعلوماً وفنون ، تجهر العيون . كان يقول بالإستعمار الحديث وطنيون عَلِقوا بإشتراكية موسكو لأنها أعطت (الكادحين) الأمر والنهى ، تيسر لهم من أجل هذا إرتياد السماء ، تلك كانت سنين الإسبوتنك ، ذهب كل فريق سبيله مغرى بهذه التعابير السياسية وكانت قد أفرغت من معانيها في أوربا ، أربت على المائة عام منذ مولدها عام الثورات في أوربا كلها ١٨٤٨ م ، حين كان أهل الفكر والذكر يبحثون عن موانىء أخرى للحضارة الغربية غير موانىء «عصر التنوير» كل فئة هنا بالذي جاء سبيلها في البدء . سبورة يكتب عليها من شاء ما شاء .

أخفقت هذه المرافىء ان تصون قوتها ورخاءها في أوربا . أتت بحربين عالميتين لا تفصل بينهما غير خمس وعشرين سنة وحروباً صغيرة هنا وهناك ، وحروباً باردة ، تُنذر بثالثة ساخنة ، لا يمسك الناس منها غير خوف الدمار . حلت عبارة «ميزان الرعب» وكان «ميزان القوى» . وكان كنيدى وغريمه خروشوف ، يرزعان معاً شجر الزقوم . التي يلوك حنظل ثمراتها العالم الآن ، من نقص في الثمرات وجوع وضيق يلقون تبعاته على نفط العرب ونفط العرب براء ، كما قلت ، يلقونه جموح العاملين يريدون قسطاً من إدارة المصانع وبيوت المال وشركات التجارة ، وما كان جموحهم إلا الضيق ، أملاه بعض الاحايين الجوع .

* * *

صخِبنا هنا في القارة وراء الصاخبين في أوربا ، وتشققنا فرحين بتعابير سياسية ماتت ـ كما قلت ـ في منبتها ، وفجأة سكت الصخب أرهف الكل أذنيه . إتجهت القلوب والأبصار لأسمرا عاصمة أرِتْريا ، وما كانت عاصما يعرفها الناس كما يعرفونها اليوم ،

قصية ، لا شيء يدعوك إليهاً . هناك إلتقى الفريقان لقاءً ما صحبته أصوات . إلتقيا في سكون . أتى أسمرة الشيخ هيلاسلاسي صبيحة يوم لا أذكره الآن . ساعات قليلة بعده أتى المدينة سيكتوري ـ شهوراً معدودة بعد هذا اللقاء كان لقاء الرؤساء في أديس أبابا . إن الذي دار بين عقلين وحِسين ، تفصل بينهما تجاربهما سنون ، لا تعرفه غير قلة ، ولا يعنيا كثيراً هنا أن نقف عند تفاصيل ما دار بين جماعة الرباط وجماعة منروفيا . يعنينا أن إفريقيا مشت معاً للمؤتمر بعد اللقاء . على أيّة حال أنا معنى هُنا بخواطري آنذاك والآن ، أطمع في أن أضع بين يديك بعض الفِكَر التي كانت تمتلك النفوس وبعض خصائص بعض الرجال والنساء . حملة تلك الفكر ، أسعى أصورها تصويراً بعيني أنا . المكتبات مليئة بالكتب والصحف التي تسوق الحقائق كما وقعت ، الحقائق إن لم يمسها روح رائيها تغدو جُثثاً مدلاة من فوق ، تفتقر للروح ، للحس . أنا عائد بذاكرتي ثلاثة عشر عاماً ما شهدت من رجال ومواقف وأزمان . أُصورها وهي تعبر صحائف التاريخ بروقاً تروح لحظة تجيء أُخرى ، أكتب لغرض . أكتب لترى معي رؤيتي المؤتمر الثالث عشر . ما حقق شيئاً ، نعم ، لكنه ما كان «أول الوَهَن» ، كما قدر بعض من رأى وعلق ، وأكتب ليفهم العربي عقل الإفريقي ، فيكون التعاون العاطف حيث يلتقان .

* * *

أكتب أصف الذي صنعناه نحن شباب الثلاثينات كهول اليوم . نرعى بعين مُحبة عاطفة شباب أوائل القرن شيوخ زماننا في الستينات حرصهم الحاذر بغيظ الجذوات في صدورنا لكنا نعرف منابعه ونقدره . نرعى بعيننا الآخرين أخوة من زماننا تثقفوا على نحونا وتثقفنا على نحوهم ولا أعنى بالثقافة ما قرأنا وقرؤا من كُتب أعنى بها عيشنا وعيشهم مع الأحياء . لهؤلاء إهتزت قلوبنا ولا كنا عواطف خالصة ، كنا مزيجاً وكانوا كذاك . أطمح وأنا أقول هذا أن يقرأ هذه الكلمات شباب بعدنا أكثر عدة منا وأكثر قدرة ودنياهم أصغر من دنيانا يتسامع عن أدناهم أعلاهم يستطيعون أكثر يغيرون هذا الذى غيرنا .

شرعت أديس تُهيىء نفسها لليوم الكبير . كان واجفاً قلبها ، تخاف أن يأتى ذلك اليوم ولّما تكتمل زينتها . أديس تكره أن تكون غير غانية . بلقيس وسليمان ذرية بعضها من بعض . أشرف على زينتها الشيخ الكبير نفسه ، وبدأ بالميناء الجوى لامبراطوريته ، وما كان شيئاً تكتب الرسائل عنه لأهلك سريحة من مرفأ جوى ما كان يفى حتى بحاجات أديس . أشار بأن يكون وجه أديس حلواً يَسُرُّ وشرعنا نرى طائرات النقل تزاحم بعضها فوق أرض المطار تفرغ كل واحدة قناطر من حشيش أخضر ناعم

كالحرير ، مكتمل البنيان ، على سيقانها فارعة . ومضت أسابيع . تغيرت الساحة وصارت غير ذاك الفَناء . ترامت أطرافها كل صوب ، وحفّت بها الحشائش وشجيرات ذات ألوان . زاغ منا البصر ، سألنا . قيل لنا إن هذا الحشيش الناعم والشجر ذي الألوان ، نقل نقلاً من الولايات المتحدة وأعد الأمبراطور خُبراء زرع من الطليان الذين كانوا على ذلك العهد ، سادة الزرع والتجارة والصناعة في أثيوبيا ، وما كانوا يعصون له أمرا . على النقيض يتدافعون للقربى من الشيخ ، وكان كل حين يذكر عجز مقاتليهم وفسوق ساسة الفاشيست سنين بعد . يُمعن ويمضي في الذكرى الأسيفةُ يُعدد لهم آثامها . وهؤلاء للقربى القريبة منه على سيئاتهم يُكفِّرُون . تزر الوزارة عندهم وزر أخرى .

لم يبق على اليوم الكبير غير أسبوعين . أتى وزراء الخارجية وأعوانهم يعدون له . أتوا جماعات من كل عاصمة . يبهرهم المطار العروس ، تَدُور عيونهم ورقابهم تُشبع نهماً يُعربد فيهم ، يتابعون فتيات أُثيوبيا ، هذه في «الشمة» لباس أثيوبيا القومى في الحواضر ، وهذه خَالِية خَلْقاً لا تحتاج زياً أي زى وتلبس لباسا أوربياً من أحدث ما تُخيط بيوت الأزياء في أديس . يحملن عن الوزراء أوراقهم ويرحبن بهم بانجليزية أو فرنسية غنجة ، تطير معها قلوبهم شعاعاً ، حبابهم ، الإفريقي لا يستحى من جسده . الإفريقية تياهة بجسدها . كان كل قبيل بقسماته وبناء جسمه ولباسه الوطني . لو رأيتهم حسبتهم في يوم عُرس . يضحكون فتهتز أجسامهم ، يحنون ذقونهم للصدور وتتدلى أكمام الجلابيب على الأرض ، يجمعونها في مشقة ويجرون جرّاً لباس القدم لا يمسكه عليها غير جلدتين ، وهي أكثر الأحيانِ طويلة ، لا يتيسر معها سير . كان الوزير المضيف كتما يفرو أكثر زملائه سعادة تُعينه سترته التي اشترى في ماديسون أفنيو ، وجسمه الدقيق الناحل ، يطويه طياً أهل مالى ، وكلهم فارع الطول ، كان رغم ضحكه وابتسامه بادى الانشغال ، ما هناك وقت يضيعه .

عصر ذلك اليوم بدأت اجتماعات وزراء الخارجية في مقر اللجنة الإقتصادية لإفريقيا ، فما كانت هناك دار تسع هذه الجموع ، ولا كانت للمنطقة دار بالطبع وكانت في قاعاتها الكبرى وحجراتها الصغرى حولها وعبرها ، وفي الجانب الشرقى معدات للترجمة الفورية ، ومكرفونات وأضواء ومقاعد وشرفات ومقاصير ومنابر الخطابة ، صوب الغرب في القاعة ذات الطول والعرض . تتناثر المقاعد الأنيقة في الردهات والدهاليز ، وفي الشطر الأقصى الأيسر مقهى حوله مقاعد وأرائك يجلس عليها المؤتمرون يديرون بينهم الرأى أو الشراب . تربط الردهات بالقاعة الكُبرى حجرات أُخرى بينها وبين الشطر الآخر من البناء جسر من البناء جسر ممدود ، ينتهي عند صالة ، صُفَّت المكاتب صفا ، جنب كل منها موظفة تعرف كل ورقة عليها . يروح المؤتمرون يختارون

ما يحتاجون ، يُطل على هذه الساحة الصغيرة حائط من زجاج صورت عليه مناظر من القارة الإفريقية ذات ألوان بهيجة ، أقرب الأشياء لِزجاج وروسوم القُوط في كنائس أوربا القديمة ، تصعد درجات من السلالم تجدك أمام مكتبة فيها أحدث ما نشرت أقلام إفريقيا في كل فرع من فروع المعرفة . وأحدث ما نُشر عن إفريقيا في كل من فروع المعرفة ، وأحدث ما كَتَب الخبراء والعارفون عن إقتصاديات وسياسات إفريقيا .

إتخذ كتما الوزير المضيف مقعده في الرئاسة عصرنا ذاك ، وأشهد أنه لقى عنتاً تحمله ، ما بَرِم ولا تأذى منه . كانت أديس حريصة على ألاّ ينكأ الجراح بين جماعة منروفيا وجماعة الرباط أحد ، وكان كتما قد دَرب على الأناة والصبر الطويل على يد شيخه الإمبراطور ، إتخذه حامل أمواله وحارسَها ، منذ عاد من كولمبيا بعد دراسة العلوم السياسية هناك . إتخذه من بعدُ وزيراً لخارجيته . وكتما نجيب كان يدرك أن هذه الجموع لا يمكن لها أن ترى بعين العين ، وهي تلتقى على هذا النحو أول مرة . ما كان معنى أن يثور جدال بين رجال ونساء ما كانت تجمع بينهم رابطة غير رابطة المكان واللون . خبرتهم بأوربا وتاريخها وحضارتها وثقافتها وألسنتها أوسع من خبراتهم بإفريقيا . وكان الدعاة من الفريقين في الرباط ومنروفيا قد زرعوا في القلوب ريباً كثيرة . ما كان هناك يحسبك تصدر عن رأيك . تصدر عن رأى أحلافك الأوربيين أو الأمريكيين أو الروس . كل فريق صدى لعاصمة أوربية في عين الفريق الآخر . كان يتصل ليلنا بفجرنا بصباحنا ، بعض الأحايين طول الأسبوعين اللذين قضيناهما قبل أن يجيء الرؤساء لأول قمة لهم في القارة الأقدم .

قال لى صاحبى مرة ، إن القوم يعيدون لذهنه صورة أيامه وهو يجادل فى الجمعية الأدبية فى مدنى ، لا ليصل أو يصل أخوته معه لحقيقة بل ليدرب ذهنهم على التفكير ولسانهم على التعبير ،وما أعرف الذى قلت أزيده ضيقاً على ضيقه. أمسك بكفى اليمنى بأصابع معروقة حديد ، ووقف على الدرج الذى كنا ننزل عليه معاً نرقب نوبتنا فى سيارات المؤتمرين . حدقنى بنظرة ، ثم أطلق كفى مُوجعة عن قبضته وأسرع ينزل ، أرقب فى خوف خطاه ، فالرجل به عرجة خفيفة خُطاه ليست مما يطمئن لها الواحد وهو ينزل الدرج فى ذاك المزاج ، يتمتم لا تبين ما يقول ، يرفع ذراعه اليمنى فى الهواء ، يعيدها على ظهره وكانت ذُراعه اليسرى هناك ، كفاه على بعضهما خلفه . طاف بى حنينى . ذكرته وذكرتنى على أيامنا فى مؤتمر الخريجين ، نثقف عليه آليات العمل الوطنى ، ثقفها هو زماناً فى القاهرة ، حيث عشق اليسار الوطنى وصحب مندور ورفاقه . يقرأ ما يقرءون ويكتب عن السودان وشئونه ، ما تقلق له الإدارة البريطانية هنا ، وتسير معه الصفوة القارئه ، ليل الاكسبريس القادم من القاهرة ، تعنيهم منه صحف البلاغ والمصرى والرسالة والثقافة ، الصحف التى أضاءت ذهن صاحبى

وأكسبت قلمه مضاءً وما كان لأبناء جيله ، الذين تلقفوا عنه ما كان يقول لرفاقه فى الجزيرة ، فقد كانوا على وعد معه ، لا يَفتنهم مندور كما يفتنهم نهرو ، ولا تفتنهم كُتب سلامه كما تفتنهم كتب نادى اليسار ، وفى الخرطوم فى أروقة نادى الخريجين ، إلتقى هذا الجيل تدفعه رغائبه الوطنية .

مشت به وبهم الأيام ، فاذا به عصى القياد ، فى وسعهم أن يعجبوا به ، ذهنه وقدة نار ، يبصر ما لا يبصرون ، يتقن أداة ما تُبصر فى كلمات أبداً أمام الأكثرون وراء . يشق عليهم أن يحبوه ، يزدادون دربه على علاج الإدارة البريطانية ، يزداد إتقاداً ، يشتعل . يؤثرون الحكمة وسير الضعفاء ، أكثرهم من ذوى الحِجى والوقار . ما كان ذاك شأنه . فضائلهم غير فضائله .

وكانت فئة قليلة تكره ألّا تكون معاً ، لا تنفرط ، فالإدارة البريطانية قوية قادرة . وخلفها من عندنا بعض سند ، مشوا معاً يحسبونه بعض الأحايين ، طالب صدارة ، وما كان كذلك الأمر ، فالرجل عصى وحسب . كان كل واحد من إخوتنا الكبار أوسع منه صلة لكلٍ ماله والجِيل ؟ ذكاؤه أبعد أثراً من جِيلهم ، ولكن ما بالذكاء وحده !.

رغمهم ، رفع به بعيداً رفاقه ، ومضوا طريقهم ، فاذا صاحبى فى وحشه سياسية طويلة ، أحسبه كان يحاور نفسه فيها ، يسائل أين كانت العثرة إنه موضع الإجلال ، نعم ماذا يفيده الإجلال لكن . إنه فى بيته قاعد لا يجد مكاناً مع أيّة جماعة سياسية ، يريد ليعمل ، يريد جماعة سياسية تحتويه وكان أفطن من أن يرمى الناس جميعاً بالحمق ويستأثر هو بالحكمة والفصل فى الخطاب . أخاله أقبل على نفسه يعتب أيضاً عليها ، وأسفر فى وحشته ما استنام ، ما صنع النوم !.

ثم جاء فجر ما كان فى حسابه،مع ذلك الفجر إنتهى أمر الجماعات التى أعزت فكرة ، أبعدت يده . كان العمل الوطنى قد إنتهى للعمل السياسى ، بعد أن إستعاد إستقلاله السودان وتباينت السبل من بعد ، وعطس الجيش عندنا ، حين عطست جيوش حولنا ، إن عراك السياسة عبث فى جوفه خطر محيق ، لن يدرءه غيره ، فاغتصبت ديمقراطية كان ذاك الجدال واحدة من دعائمها العُدّة لو دَرَى . وعَابَثَ التاريخ صاحبى مُعَابثة مشى الجيش نحوه ذلك الفجر يستعين به ، فأعان على مقدار أراده . وأياماً قليلة بعدها وجد مكاناً فى السياسة ظل يرنو له ، يراه قريباً ولا يصله . هنا عَابَثَ صاحبى التاريخ بدوره ، فقد كان يعمل مع الجيش ، يقول عن أهله حين يخلو لمن يأتمن «الجماعة» ويبسم بسمة ، تهم أن تكون ولا تكون . طول العيش ينتهي بالأكثرين منا لرؤية الناس عرايا إلّا من جلودهم ، طول البقاء أوسع الأبواب مدخلاً أدار الخطاب فى الناس ، ما عاد صاحبى ذلك الشباب الحُجة رآنا جميعاً عرايا .

ملك النفوذ كله وكان لغيره السلطان . ما عناه هذا ولا أوقره . طول العيش ؟ ما كان ما يستحق عناءه ؟ ظنى أنه كان يُبادل التاريخ عبثاً بعبث . يضحك ، يـزدرى يمتع نفسه . صاحبى لا يملك عبقرية المتنبى الذى حدثنا عن رمحه والناس ، لكنى وأنا أرى هذا الشطر من عيشه أُجزم أنه أشرف على العبقرية . خذله زمانه ، وخذله عجزه عن أن يطيق غير من يحب وما يُحب ، وهو أشق الأحباب عند أحبابه .

عُدت لدنياى من خواطرى هذه ، وهو يدفعنى برفق للسيارة ، أتت نوبتها لتحملنا للفندق ، جلس يُمناى ثم اتكأ بعيداً رأسه على مؤخرة المقعد ، عيناه مقفلتان . وصلنا الفُندق وهممت بأن أسير قُربه بيسار ، فالتفت «ما شى وين ؟ أمشى نوم ....» ومشيت ابسم من مقته أدبى ، ولا أعجب دخلت غرفتى ، أسائل نفسى إن كان هناك من يعرف هذا الرجل المزيج ، أقارة من عهده الأول وكثير كثير جديد . شخص من شخوص رواية . إن كتب عن جيله وعنه كاتب . على النحو الذى فعل بريستلى فى «الرفاق الطيبين» يرصد فى إقتدار طريقه الطويلة من براد فورد لأيل إف مان ، الذى فعل هكسلى فى «نقطة لقاء أخرى» يرصد حيوات لورنس وفريدا وصحابه فى صراحة كان هو أمامها ذاك الزمان ، إن فعل هذا أحد ، إتخذ صاحبى مكاناً وسطاً بين شباب جيله ، فما هو واحد . هو أمزجه وأفكار وصفات ، وأسمع أنه كذاك حتى اليوم ، عصى الزمان .

* * *

والتقينا بعد ساعات . كانت ليال عزّ فيها النوم . كنا هناك فى العاشرة من صباحنا نفسه ، وفى الرئاسة كتما يفرو ، وقليلون ممن أوصلوا مساءهم بصباحهم معنا فى القاعة ، وسريعاً مشت بنا الأيام من بعد ، نقترب لليوم الكبير ، يوم يتخذ الرؤساء مقاعدهم فى الصدارة ، حولهم كبار من بهم يستعينون ، وما أعددنا لهم كثيراً ليومهم ذاك شىء واحد أعددناه ، وكا كان شيئاً به تستهين ، حين ترجع البصر وراء تنظر فى الذى كان من أمر المنظمة . قرّبت ليالى السهر بين شباب الرباط وشيوخ منروفيا . إلتقى الوزراء وأعوانهم فى تفاهم لا يتعاطف ، تفاهم المجبور على أخيه . خفتت قليلاً أصوات أُولئك الذين يعدون فى ذهنهم ما سيقولونه لك حين ينتهى حديثك ، لا يعنيه حديثك قدر ما يعنيه أن يثب عليك ظناً منه أنك وانّبْته ، أسير فكر وعواطف عاشها قبل أن تلتقى الرباط بمنروفيا يوم إلتقى الشيخ هيلاسلاسى بالفتى سيكوتورى ، رسول الشيوخ برسول الشباب ، وكان اللقاء حَنية فى تاريخ القارة ، ما جاء أوان الحديث عنه ، رأفة بالشيخ ، يتهرأ لحمه فى أقبية قصوره الرطبة ، حرصاً على الفتى ، الفتى آنذاك ، تحيط به ريَبة وظنونه ، وقد تقدم به العمر ، وطول العمر ، كما قلت ، يكاد أن يكون سوءة ، الشيخ كالأعمى يبيح ما كان يُبيحه فى عهده الأخضر .

ما كان هازلاً ييتس حين دعا ربه فى «صلاة لكبر العمر» ألاّ يميته عاقلاً يحبه الناس كل الناس . توسل إليه فى صلاته هذه أن يروح من دنياه رجلاً حيّة أهواؤه ، لا يرمي به ذاك الحيوان المائت ، عَلِق به الناس لا يدرون متى يموت ، ويموتون معه من صنانه وَنتنه . ينفق أغلة أغلة ، ينتثر جسمه . ما هكذا عبرّ عن مقته العمر دلان توماس، لا للسنين التى تفصل بين ميلادهما .

صدف الميلاد لا تقدم ، لا تؤخر ، ما كان توماس يحيا ليكتب شعره ، كان يكتب شعره ليحيا ، فقد كان واحداً من أهوائه ، وكانت قليلة يحياها بعنف أعجل أيامه فرط عشقه لها . قال أكبر الظن ، قوما أقروه بحديث العمر والحنكة ، أنه لن يروح «زبالة العمر طائعاً ذلولا» تجاعيد العمر تنفره ، لن يقول يوم تزحف نحو «مرحى بذقنى المسدول» وفى مقطع من القصيدة صاح فى قارئه صرخ ينصحه إن جاءت التجاعيد «إغضب ، إغضب» كان سمحاً الموت . ماله لو أبقى على عاشق حياة بعض وقت . استأثر به ؟ ما أتم توماس الأربعين ولو بقى ما اقتنع . ما هناك فنان قنع بالقليل من الحياة قالت كولت باغتتها السنون بلغت السبعين «واحسرتى على السنين» .

«من لى بها ثانية
ليتنى لا تروح رافقا راضيا للسماء حين يقبل عم مساء
لك إن تقدمت أن تهيج وتصرخ
تأبى نهاية النهار
إغضب إغضب حين يشرع
يموت الضوء
منتها . إذن لبقيت تشتهينى الرجال» .

شيوخ منروفيا ما كانوا من هؤلاء فى شىء ، لكن عظامهم كانت تحدثهم بالذى راح والذى بقى ، فالقوا بعيداً بالريبة الكسيحة لحين ، ومشوا نحو شباب الرباط يحاذرون . حسنت الألفاظ بين الفريقين ، صقلها يقين كل جانب بأن من يُلاحيه ليس ضالاً ذاك الضلال الذى حسبه قبل أن يلقاه . ورأيتنى سعيداً بالذى أشهد ، قانعاً به ، وما اهتز صاحبى بالذى وصل إليه مسار وزراء الخارجية ، ما كانوا عنده غير «أولاد» وإن هممت بجداله سخر يقول «إنت عامل نفسك تقدمي» وطبعاً يرى فى نفسه التى ينكر الآن . ماذا جنى منها ؟ عاشها فدفعته بعيداً عن السياسة غريباً بين لداته . له الإجلال كما قلت والإكبار . لكن ما «تغشانا» كما نُعبِّر عندنا . سوء حظ أن حاذروه .سوء حظ آخر ، حسبانه أنذاك ، أن ذكاءه يكفيه .

* * *

تلقانا عند مدخل المطار العروس كفلي اقبزجي ، الرجل الذى إختاره الشيخ ليقوم على تنظيم اللقاءات للوزراء والرؤساء والسكن وتيسير ما يريد كل هؤلاء من أسباب راحة وأوراق عمل ، وكان ذاك يوم مقدم رئيسنا من الخرطوم ، خَفّ للقائه سودانيون يقيمون فى أثيوبيا ، احتفى بهم اقبزجي ، وعلى فمه إبتسامة لا تريم ، خال لى أنه وضعها على شفتيه يوم غادر مطار كندى فى طريقه لإديس ، فقد كان رسول الشيخ للأمم المتحدة سنين عددا رسمت شفتيه بسمة ما بها بَذْل .

قيل لى غير مرة أنَه ساهٍ «مُودُر» كما نقول عندنا وما رأيت شيئاً يعيننى على غير هذا ، أيام إدارته شئوننا فى المؤتمر . كان قد نسى رسمة أروقه الأمم المتحدة على شفتيه حين استقدمه سيده ليدير لنا المؤتمر شرعت ، تنام ليلة معه ، تجيء فجراً معه تعود آخر الليل . كان المؤتمرون أحوج لأوراقهم ، فما لقوا بعضهم قبل ذلك ، لتغنى الإشارة عن العبارة . وكانت كثيرة مواضيع الجدل ، فأكثرنا حديث عهد بالعمل المشترك ، حديث عهد بالذى ندير فيه الرأى ، لا نعرفه إلا خلال دخان من دعا وأنا فى بلادنا . وضباب تطلقه صحف وإذاعات العالم ، كانت ادركت قبلنا بكثير ، ما سيكون فى أمر هذه القارة حين يقوم على أمورها أهلها ، تعود لهم إرادتهم ، يحسنون لمن يحسن ، ويعزفون عمن يسيء .

أخذ أقبزجي بكف صاحبى وصعد بنا لغرفة فى الطابق الأول ، وغيبه أخرى بعد أن جلسنا يعود بعد قليل يطل برأسه وقد وقف الإمبراطور وسط الغرفة باسماً لنا مادأ يده ، وصاحبى يهرع إليها ، ينحنى له انحناءة أثيوبية ما هى من طبعه ولا كيانه . كان يرى فى الشيخ المهُيب ، ما كان يحب أن يكونه هو لو بيد واحد أن يصنع تاريخه ، لو بيد القدرات أن تصنع القادرين . إنه التاريخ فاجر . قال لهم ما قال فحمل الثوار لويس السادس عشر للمشنقة ، لأنهم رأوا فيه مُجرماً تلك نهايته . سنة واحدة بعدها ، حُمِل هؤلاء أنفسهم للمشنقة لأسباب رأوها .

كما جلس بيير ببزهف يحدث وهو يسائلها عن قضايا «الحرب والسلام» فى رواية تولستوى .

بدا الشيخ على مقعدة الكبير ، طفلاً على حجر ابيه . أدنانا من مجلسه ، أصفياؤه على أرائك حوله يطل عليهم من مقعده ، حملت قدماه الصغيرتان وسار عالية ، ذُراعاه على ذراعي المقعد مبسوطتان ، ثنى كفيه على المقبضين لينحنى إنحناءه ، لا يبدو معها دقيقاً جسمه الناحل ، توسط حلقة الأصفياء رئيس وزرائه . أكليلو هبت ولد ، الذى ما كان يقطع أمراً دونه ، يقف بينهما «سهاى تزاز : مستشار البلاط» أكالا ولد مريم أجرود أفلس ليس فيه مستقر لخير ، أسمع أن الثورة ما رأت وقتاً تضيعه معه

تسأله ، راح مع الطلقاء . فى مقعد قريب من مقعد الإمبراطور ، جلس الشيخ الأنيس الألوف راس أمرو هيلاسلاسى ، يعيش شيخاً فانياً ، يشكو شكاة لبيد ، وما عرفت من مشيخة القوم أهون لنفسه منه .

كان الإمبراطور فى خير حال ، يستعيد مع صاحبى ذكرياته فى السودان حين كان يعده الحلفاء أيام الحرب الثانية ، ليوم يعود فيه لبلده، بعد أن يستردوه له من الفاشيست . كان يقيم فى دار كبير من قرابة صاحبى ، وتوحى إلى حيوية الحديث بين الرجلين ، أن الشيخ كان يعرف الرحم الذى بين صاحبى وبين الكبير الذى أوته داره أيام بؤسه ومنفاه .

قطع الحديث عليهما وعلى من بالغرفة غيرهما رجل بالباب ينحنى جبهته تلتصق بالأرض ، تلك تحية القوم لسبط يهوذا ، إستقام ، دخل ، مشى يحاذر ، يلتقط خطواته إلتقاطاً ، وأتى مقعد الإمبراطور ، إنحنى ثانية ، وضع فمه فى أذن سيده يهمس ، يقذف فى أذن الرجل كلاماً لاهثاً عجلاً، كمن يقرأ من صحيفة فى ذهنه ، والإمبراطور يرعى الناس ، لا أثر فى وجهه من هذا الذى يسمع ولا هزّة من رأسه تشير إلى أنه يستمع . ثم يصمت الرجل . يقبل الكف المبسوطة أمامه يحمل جسمه عبئاً ، تسمع أنات عنائه من عبئه ، ويخرج لوراء وجهه صوب وجه سيده ، ظهره للباب ، ينحنى كما فعل حين دخل ويغيب ويعود الإمبراطور مبسوط الأسارير لصاحبى ، نحنُ للذى كنا فيه من أحاديث ، ودقائق بعدها ينقطع الحديث ثانية . لدى البابب امرأة فى «شمة» مما تلبس كبيرات العمر ، فى أثيوبيا. جَهِدت لتنحنى وما أعانها شىء فيها . كانت عظيمة العجز . من وصف شاعرنا يقول «تخزى ركام النقى ما فى مآزرها» .

وما كان مئزرها مما يستر الحنايا والعكن والثديين والساقين ، ذاك لأن الشمة تفضح المقابح ، تزيد حسناً المحاسن . يئست من أن تعطى جلالته إنحناءته فهز لها رأسه ، يعترف بأنها جهدت جهداً شديداً ، فخلصت من «سفنجة» كانت فى قدميها ، بدأ بعد خلعها وهى تجمع أطراف ثوبها شحم ولحم تحسبه ورماً وما هو ذاك . أبحرت داخله والإمبراطور يبسم لها وهى تسير «خطوه إثنين مستحيل» عجزاً لا تحليه . أقعت جنب مقعده كما أقعى الرجل الذى كان معنا ، تلهث ، يرتفع صدرها وينخفض ، وصوت صدرها نسمعه ، مؤخرها على ركبتها . هناك ، بعيداً هناك ظهرها يجاهد لتضع فمها فى أذن الإمبراطور ، وصلته بعد لأىٍ . تتحدث وتلفظ أنفاسها كل حين لتمضى فى الذى تقول والشيخ يستمع على النحو الذى رأيت ، ويخصها بلفتة عاطفة منه . تُقبِّل الكف المبسوطة ، وتقف قطعاً قطعاً ، وتبحر خارجة كما أبحرت داخلة ، ونرعى نحن مسيرها للباب فى إشفاق . انسانا عناؤها أنها ليست ممن يسر ناظراً . تبعثُ فيك إشفاقاً

يبدو على عينيك التى تتبع مسيرتها للباب . الذراع هنا . الثدى على الصدر متدلياً على لفافاته ، الأرجل متباعدة ، شعبتان قويتان تحملان ما لا تطيقان ، فالجذعُ فوقهما يمتد كلّ صوب . أبحرت خارجه وجهها فى وجه الإمبراطور ، ظهرها للباب كما تقتضى التقاليد ، لا تأذن لواحد أن يولى ظهره للإمبراطور ، ولدى الباب إنحنت قليلاً وبيديها إلتقطت «السفنجة» من على الأرض .

* * *

قال لى صاحبى وهو يفرك ذقنه بيده ويحدقنى بنظره من نظراته التى يتحدى بها ذكاءك حين يريد ليضعك مكانك الأدبى من مكانه . إنه مغرى بهذا ، لا يريد لك أن تنسى لحظة واحدة ذكاءه . سأل «أعرفت هذه البقرة» ؟ ثم بسم بسمة الظافر حين رفعت كتفى ، وحاجبى أُسائله أيّة بقرة يعنى . قال «حسناً ، دعك من البقرة أعرفت الرجل الذي كان يهمس فى أذن الإمبراطور ؟» عندها فهمت . قلت إنهما واغلان من ذوى الحاجات . قهقه قهقهة المنتصر لا يغالبه أحد . قال إنهما من حفظة الأمن ، رَفِقَ بى ، لم يقل واحدة من عباراته الساخرة يُلقيها جمرات حارقات فى وجوه الناس ، وكان على حق فى الذى قال . تلك وسائل الشيخ . عيونه كل مكان ومن كل نوع . فى الجوانيت فى الفنادق وفى بيوت البغايا . رجال ونساء وأطفال وكان حتماً عليه أيامنا تلك أن يكثر منهم ومنهن وأن يرصد حتى الطيور فى أوكارها فذاك كان عهد الخصومات بين الإفريقيين فى بلادهم المفردة وبينهم فى بلادهم العُدَّة . فى بلادهم المفردة كانوا فرقاً تعمل للإستقلال من النفوذ الإجنبى ، وظفر بعضها بالسلطان بعد أن أسلمت الدول المستعمرة البلاد كارهة لأهليها . بعضها خسر السباق وخرج بليل كى ينقذ جلده من الظافرين كما فعل كثيرون أو لينال منهم كما فعلت قِلّة ولاذت بعواصم أوربا . كنت تسمع عن قادة وطنيين ألقى بهم الظافرون بالسلطان فى غياهب السجون ، وعن آخرين وجدوا على فرشهم قتلى فى فنادق أوربا . ما كان الإمبراطور بغافل عن هذا . إفريقيا قبائل وشعوب وألسن وديانات ، وحين تعنف تستحيل غابة مفترسة تغلي دماؤها ، تذكر ثارات قديمة بين أهليها ، وتزيد بذلك لحدة الخلاف السياسى بعداً آخر . ما كانت أيامنا تلك بعيدة من شقاء لومومبا بفجور شومبى مثلاً . السُلطان لا عم له ولا خال بل ولا ولد .

هيلاسلاسى ما كان «ود الليلة» كما نقول عندنا . كان ابن أمسه وما عرف فى تاريخ اثيوبيا ولا فى تاريخه هو طريقاً للسلطان ، إلا تلك التى تسيرها على الجثث ، تخوض دماء مُغالبيك . إن صدق الرواة تزوج جلالته سيدة يعرف أنها حبلى ، لأنها كانت درجاً فى سلم صعوده الطويل . قابل بين رجولته وطموحه ومشى طريق الطموح .

إن صدق الرواة إستعان بالقس «راسبوتين الحبشة» لقتل لج ياسو . لك أن ترتاب فى الرواة إن شئت ، لكنى رأيت الجموع الغفيرة فى البياتسا . أفسح ساحات أديس ، تروح وتجيء يومين كاملين من مطلع الشمس لمطلع الفجر ، تشهد جثة الجنرال منقستو نواى ، مدلاة من رقبتها على خشبة ، رقبته على كتفة مُلقاة ، وساقاه تعبث بهما الريح ، هكذا أرادها هيلاسلاسى عبرة لمن تحدثه نفسه أن يخرج عليه كما خرج عليه قائد حرسه الخاص ، منقستو نواى .

ما كان عجبا أن تنتشر العيون تطمئنه أو تحمله على مزيد من اليقظة وكان عبد الناصر أكثر أعبائه ، فقد كانت تلك أيام إزدهار علائق إسرائيل بإفريقيا ، وكان هيلاسلاسى أكثرهم قربى منها ، خبراء جيشه وشرطته وأمنه كانوا من أهلها ، أليس هو سبط يهوذا ؟ أخرجهم كلهم من العاصمة قبل اليوم الكبير ، وأخرج كل مصرى كان فى أثيوبيا ، فقد كان شائعاً أنهم كلهم أعداء لناصر ، وكان شيخنا يحب وهمه الذى يعيشه . إنه الملاذ الروحى للمقهورين فى مصر بعد الثورة . وما كان ملوماً الرجل ، كانت قلة من هؤلاء ، تتقرب إليه بلعن الإشتراكية وسب حامل لوائها فى مصر ، ليسهل عليها التجارة فى إمبراطوريته وكان ما يقولون يلقى هوى فى نفسه ، لأنه ما كان يختلف عما يسمع من الدعاة فى الاذاعات ويقرأ فى صحف أوربا ولأنه كان قد ألقى فى روعه أنه الحافظ الأمين على قيم الحضارة المسيحية فى إفريقيا . أليست المسيحية فى بلاده ـ أقدم من المسيحية فى بعض البلاد فى أوربا ؟ أليست داره الآن دار أبى سفيان للعائذين به من بلاد تجاوره يجيئونه فيقطعهم الأرض وييسر لهم العيش الرَّفيه ؟

* * *

بعد ظهر أول يوم ، وساعات بعد قدوم أخرالرؤساء صعد الرئاسة هيلاسلاسى ، سيد الدار ، مضيف المؤتمر . ووقف التاريخ يسمع التصفيق داخل القاعة ، ويقينى أنه إبتسم «إبتسامة ساخر» . التاريخ مغرى بالعبث عاشق لحنياته الغادرة . إبتسم وهو يرعانا بعينيه ، كما رعى بهما إجتماعات مؤتمر برلين . إمعاناً فى إزدرائه الناس ، أنطق الافريقيين فى ذلك اليوم من مايو ١٩٦٣ م ، بعين الذى نطق به التجمع الأوربى قبل ثمان وسبعين سنة . إفتتح الأوربيون مؤتمرهم «باسم الله القوى العزيز» وأعلن معلنهم أنهم يجتمعون كى يعملوا «لنفع الأهالى فى القارة الإفريقية منفعة مادية وروحية» كما يقول ميثاق برلين . ما قال رؤساء القارة يومنا ذاك عين هذه الكلمات لكنهم قالوا معانيها بكلمات أُخر . تنادوا للهدف الذى قال به مؤتمر برلين وهو يغتصب القارة العذراء . وما كانوا لهذا يدركون بالطبع لحظتنا تلك . كانت أديس تسعى لتجمع القارة التى شقّقها ميثاق برلين ذرات ، وكانت الدنيا بأجمعها هناك لا أُغالى . الشرفات على كثرة

طبقاتها المدرجة واحدة فوق أختها ملأى . المقاصير فوق رُسل الدبلوماسية الأوربية . تخيروا أنق الملابس والقبعات وتخيرت زوجاتهم أزهى الألوان ، وأغلى العطور . جنب هؤلاء ممثلو وكالات الأمم المتحدة فى أديس ، وكانت كلها هناك .

وكان فى المقاصير كبار رجال الإمبراطورية الأثيوبية والنبلاء . كانوا على مقربة من مقاصير أهل البيت ، من بنات وأحفاد الإمبراطور ، يتصدرهم «القاوراش» ولى العهد فى النظر لا الدستور . فقد كان الدستور يُخوِّل للإمبراطور إختيار خلفه . على مقربة من المقاصير كانت شرقة رجال ونساء الصحافة أتت من أكثر البلدان فى الشرق والغرب وإفريقيا . يقفون لحظات يُطِلون . يجلسون لحظات يعيدون فيها آلات تصويرهم وأدوات تسجيلهم إلى كتوفهم . لحظات أخرى تراهم بين قعوداً ولا جلوساً ، جُذوعهم منكفئة تحملها أذرعتهم على ركبهم ، أعناقهم ممدودة تطل على الجالسين والداخلين ، جيوب صدورهم حشوهاأقلام وبطاريات ومفكرات كانوا أتعب الناس فى القاعة . ذرات العرق على جباههم . بناطلينهم تنزلق . يسرعون يشدونها على خصورهم . تنزلق ثانية وقد عجزت عن أن تحتوى بطونهم . هذا أرسل ذقنه لا يملك الوقت يُزيِّن وجهه . هذه لفّت شعرها بعمامة ، لا تملك الوقت تقصه أو تُطوعه . فئة من الرجال والنساء نقرأ ما يكتبون ونرى ما يصورون لا يجىء فى بالنا عنتهم هذا ، ولا شقاؤهم . «آية هذا الزمان الصحف» .

وامتلأت القاعة بالهمهمات تتجمع من كل صوب . وبالتحايا من على القرب بالأحضان ومن على البعد بالأيادى تلوح ضاحكة صارخة . دخلت فتيات أثيوبيا وفتيانها صفوفاً منظمة ، تضع أمام كل دولة أوراقاً عُدّة ، وكنا جلوساً حيث تضعنا حروف أبجدية باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، على يميننا الصومال ويسارنا سيراليون . قبالتنا على الحائط تَصوُّر فنان أثيوبيا الأشهر أفاروك لإفريقيا وقادتها . ملء الحائط . القادة فى صورته يمين ويسار . طريق طويل يجرى عليه حامل مشعل كمشعل الاولمبياد ، نازلاً من هضبة عالية .

أمسك الكُل بأنفاسه . حين جاء الإمبراطور منبر الخطابة «كبراتنا كبرات» لندعه مع لغته الأمهرية ، وندع الآخرين يستمعون إليه فى لغات يعرفونها ، تجيئهم عبر من يترجمون ونخرج للدهاليز والحجرات والمقاهي ، نلتقي بالناس ونشهد إن أردنا كل الذى يدور فى القاعة ، على شاشات التلفزيونات منشورة كل مكان فيه . أريد لترى بعض الذى رأيت أنا أول المساء ، فى الدهاليز وفى مقاهى المبنى العريق . رجال كثيرون ونساء . خرج بعضهم من الحجرات حيث كانت لجان المؤتمر ، تشقق الكلمات تقف عند الكلمة المفردة ، تسابق الزمن كى تصوغ ما انتهى إليه الوزراء من آراء إلتقت بعد

عُسر . طُوعت لها المفردات تطويعاً فكان لقاء العقول ، لا لقاء القلوب . خرج هذا البعض يريح جسمه المضنى المكدود ولا سبيل لهناءة فى الدهاليز والطرقات . صحفيون وصحفيات ما أتسع المكان لهم فى شرفات القاعة . يرون واحداً من السفراء أو أعوان الوزراء الآخرين يتحلقون حوله وهو غائر العينين من الرهق يبحث عن قهوة سوداء تنعش ذهنه . يفلت من قبضتهم فى غير ما تلطف ، فأنت لا تحسن التلطف والإعياء ممسك بخناقك . تحسن التلطف مع هدوء البال ، والرضاء عن الناس والنفس . وما كان هناك شىء من هذا كان الكل قلقاً وكان الإعياء فى وجوه قادة القارة .

* * *

أجدنا قبالة واحد ممن عرفت فى الأسبوعين ، اللذين قضينا فى القاعة الكبرى وراءنا ونحن فى الدهاليز ، واخواتها الصغرى من القاعات حولها ، والحجرات كذاك كل صوب . يمسك بيدى أخى . ما كان فى المؤتمر غير «أخ» . كلمةترد على لسان كل إفريقى ولا يرى صنعة فيها قال وقد أمسك بيدى ، كمن يخاف أن أمضى عنه «ألم أقل لك منذ جئنا ؟» جهدت لأذكره ، عيناى فى عينيه لا أطرق أخشى عتابه وجهدت لأذكر الذى قال فالذى قيل فى الأسبوعين ومنذ أمس كثير . ويوفر «الأخ» علىّ عناء إعمال الذاكرة ، يعرض على أن دولاً بعينها ، وأشخاصاً بأعينهم يخافون الوحدة التى جئنا من أجلها هنا ، لأنهم لا يملكون من أمرهم شيئاً . على أرض بلادهم جيوش أجنبية تحرس منافعها التى بقيت بعد فقدانها سلطانها المباشر ، وتحرس الحاكمين الإفريقيين ، سَدنة تلك المنافع . تحرسهم من حنق الجماهير .

أسند «أخى» فكه على كتفى ، فمه فى أذنى ، عيناه على الأرض ، ذراعه ممدودة إليها ، سبابته تطلع وتنزل على عجل تُلح ، عرفت أنه يعنى الأرض التى نقف عليها ، أرض أثيوبيا ، وما كان وحده فى ظنه . كان كثيرون يقولون ما يقول به «أخى» . أكثر الشباب كان يجزم لك بان أثيوبيا ليس أوفق بلد يجتمع فيه الزعماء والأفارقة . ما زالت كعهد الناس بتاريخها الطويل «لعبة الأمم» . وما انتظر «أخى» تلوى بين الأجساد . إحتواه الزحام .

مشيت نحو المقاعد ، عينى على تلفزيون على الحائط . جاء «أخ» آخر يلوح بورقة ، كان نافذ الصبر مُربد الوجه . كيف للإفريقيين أن يتخذوا هذه «الورقة» منهاجاً لهم وميثاقاً ؟ سأل . ساعات بعدها عرفت أن الورقة التى كان يمسك بها «الأخ» هى مسودة الميثاق الإفريقى . أذكرنى ساذجاً أقول له لا تجزع ، يومان كاملان أمام القادة ، وهُم الفيصل فى الأمر بيدهم أن يعدلوا ويغيروا فيه ، بيدهم أن يأتوا بخلق

جديد . أذهلنى «الأخ» أتانى بما لم يرد على بالك وما لم تسمعه من قبل . أكّد لى تأكيداً إن ذاك الميثاق الذى لُوح به ، مسخ من ميثاق الدول اللاتينية أعدّه واحد من فقهاء تلك الدول . ثم مضى يجزم لى أن تلك الدول أجمع أداة الولايات المتحدة وعكازتها فى القارة اللاتينية . وتابع حانقاً يسأل «أبِنا فى قارتنا هنا عقم ؟ فقهاؤنا والله كثر» . جاء بفكه ثانية على كتفى وذراعه حولى ثم همس بالذين أتوا بالفقيه من بعيد وما كان فى حاجة ليهمس ، ما كان ممكناً أن تسمعه فى الضجيج حولك ، ودقات آلات التصوير ، والأصداء من مكبرات الصوت ، وأحب للحديث أن يمضى لغايته لأعرف من هم الذين لاذوا بفقيه من أمريكا اللاتينية ، ليهدى الأفارقة السبيل . يحول دون هذا حب يقتل عربى من إفريقيا يقبل الخدين منى ويهز يدى مرات . «ما التقينا منذ الصباح .. ماذا فى الجو ؟» «خير إن شاء الله ، كل شىءعلى ما يرام الحمد لله» . أحمد الله لا أعرف لم أحمده ، ولا يعرف الصديق الأثير صقر ، إبراهيم صقر . يبسم خبيثاً وأبسم .

* * *

ينحى بى جانباً صديقى المشتاق ، ما التقينا منذ الصباح . يحدثنى عن الدور الذى يمكن أن يلعبه السودان ، همزة الوصل بين العرب وإفريقيا . إن إسرائيل قد سممت الجو على العرب ، وأوهمت الإفريقيين أن العرب لا ينتمون إليهم . القت فى روع الأفارقة أنهم فى إسرائيل على خير العرب . لن يجيئهم خير على يد العرب . يمسك المشتاق بكفىّ يحركهما ، يسألنى من هو الإفريقى عندهم ؟ وما كان يسيراً أن أقول مُثيراً ، فالسودان على أيامنا تلك كان يحيا بمعزِل عن المنطقة العربية والقارة الإفريقية . كان العرب فى حسبان قادته من الجيش شيوعيين ، وكان صاحبى الذى عرفت قبل قليل عقل ذاك الزمان وذكاء رجاله عنه يأخذون ، إليه ينتهى الأمر . أوصى شيخهم أن الشيوعية ضرب من العهر لا مذهب سياسى . تصارعه حيناً ، تؤلف قلبه حيناً ، تعيش معه كل حين إن كنت رجل دولة ، لا تخاصم المؤمنين بها فما هم أبالسة بأنياب ، إنهم قادة دول معاصرة . أما الإفريقيون فما كانوا فى زعم صاحبنا ، وزعم «الجماعة» كما كان يسمى الجيش الحاكم ، غير صِبية يضيعون وقتك فى الثرثرة ، وأنت تحب لوقتك أن تُمضيه فى بيع القطن وشق القنوات . وما كان صاحبى غافلاً ، كان من قلة تعرف إنك لا تستطيع هذا وأنت قد اقفلت على نفسك النوافذ والأبواب . لكنها مؤامرته على نفسه .

ما أسرف سيكوتورى حين رآنا فى السودان لا ننتمى لفكر أو لآخر ولا نشرك الناس فى الذى يدور حولنا حين قال إن «السودان رجل إفريقيا المريض» ما أدرى ماذا كان يُسمينا لو عرف إن بعض حذقة الكلام عندنا ذلك الزمن كانوا حين يخلون

لأقلامهم ، يكتبون عن قيادة السودان لإفريقيا . السودان ملح الأرض ، ماله والعرب ، إنهم أهل شقاق . وكان صديقى المشتاق الذى هزّ أكتاف وقبّل وجنتى يعرف ـ أكثر الظن ـ شيئاً من هذا ، فقد كان ذائعاً أكثره ، ولكنه كان مُلِحّاً المسكين . يحسب أن جلسنا هو وأنا وعرّفنا كلمة الإفريقى انقضى الأمر كله ، وعرف هؤلاء الغافلون من الإفريقيين مقام العرب بينهم .

* * *

عفانى صديقى ـ المشتاق ـ من تعريف الإفريقى وكنتُ أهم أن أفعل ، مغيظاً غير قليل . لمح على ساعة الحائط أن الليل يقترب لنصفه فأنصرف مودعاً ينصحنى «لازم نسمع نكروما» . أعود للقاعة . أتخذ مكان وراء رئيس وفد السودان ، جنب صاحبى وكان عند ظنى به ، مرتفقاً كفه ، يصيخ لما يقول الخطيب ولا يُعنى بالذى يَسمع . كان لَقِس النفس ، ينظر صوبى من حين لحين . فجأة دفعنى بكوعه ، واتجه بعينيه لوفد غانا ، فاتجهت أيضاً أنا فإذا برجل يلوح بيديه وهو واقف ، يشير إلىّ بسبابته وقد زقعت عيناى على عينيه ، ويأذن لى صاحبى بنظرة منه وقد أقفل الأخرى . فأخرج أتلوى بين المقاعد «عفواً» وأمسك بمقعد «عفواً» وألقى نهاية المطاف الرجل واقفاً على رأس الدرج بين القاعة والمقصورة وأنعم أنا النظر ، أريد لأذكر ، تنتهى لحظات التأمل حين يُعانقنى وأعانقه :

«أعَرفتنى يا وغد»

«أنت جيمز هتون»

«وأنت أحمد»

«نعم»

«أما زال إسمك أحمد ؟»

«ماذا تتوقع يا شقى ؟»

«إنا أسمى الآن كوفى كوجو»

«ماذا ؟»

«صدق أو لا تصدق»

«هل صارت الأسماء فى غانا كالقمصان ؟ ينسخ واحد تغيره بآخر ؟»

«لا ، يا أنت ، يا غبى ، رجعنا للأصول»

«نعم ، كانت غانا إسمها ساحل الذهب ، وغيّرها نكروما لأسباب تاريخية وقومية مفهومة» .

«بالضبط ، كنا نحمل أسماء أوقرت أعناقنا بها الكنيسة . عدنا الآن لاسمائنا التى ولدنا بها»

«فهمت أفرقتم الأسماء» .
«كما أفرقنا أسماء الشوارع والكنائس»
«أوه ، ما أحلى أن نلتقى بعد عشرين سنة يا جيمز» .
«تقصد كوفى» .
«آه ، معذرة . ثم شكراً للسماء ، اخترت إسماً يستطيع الواحد أن ينطقه . أكثر الأسماء الإفريقية حروف ساكنة واحدة وراء أخرى لا تساعد على نطقها حروف متحركة . الأسماء تملأ الفم»
«يا إلهى الطيب (العرب آخر من يقولون هذا) . ما اسم الفلسطينى الذى كان معنا فى جمعية طلاب وراء البحار ؟»
«يا لذاكرتك يا كوفى ! تقصد عبد المؤمن» .

قهقه كوفى قهقهة الإفريقى تجىء راعدة من أعماقه ، وبسمت بسمة العربى «حمانا الأسى إلا إبتسامة ساخر» . وجلسنا بعد دفع واحتكاك كتوف وشرع كوفى يحدثنى عن عن أيامنا فى اكستر ، يُعاتبنى وأُعاتبه . وبين حين وآخر نقف لواحد يعرفه هو يُقدمنى إليه ، أو لواحد أعرفه أنا ، أقدمه إليه . يُحيى بعضنا بعضاً ، يعلق واحد على حديث جاء على لسان واحد من الرُؤساء وواحد يعطيك بطاقته ، يُريد ليعرفك أكثر ، وترد أنت صنيعه . فجأة وقف كوفى يقول لى «إن لم يكن عندك ما يضطرك للبقاء هنا تعال معى نتحدث» . عجبت لأنى عرفت كوفى واحداً من أهزل الناس وأعبثهم ، أيّ حديث ؟ ما قُلتُ هذا، أين تسكن ؟ قال «قريباً . هنا فى ـ القيون» وأشار بيده صوب الفندق جنب القاعة .

* * *

وجدتنى فى واحدة من ڤيلات الرؤساء ، أُقيمت كلها حول فندق القيون على أرض الحديقة الخضراء خلف الفندق ، كثيرة الشجر والشُجيرات وأزهار من كل لون . كانت متراصة هذه الڤيلات وراء الفندق تفصل بينها مسافات مقبولة تتيح للرؤساء أن يخلو بأعوانهم ، وأن يجىء لهم أعوانهم من باب فى مبنى اللجنة الإقتصادية حيث كانت تعقد جلسات الرؤساء والوزراء . باب يصل القاعة بالفندق كيف إستحل كوفى ان يدعونى لسكن رئيسه ؟ ونكروما ما كان واحداً من عامة الرؤساء ... الكارهون أحشاءه كُثر ، العابدون أُحلامه كُثر . نصبت له العيون تحت الشجر خشية الكارهية . جلست فرعيت صديقى القديم كوفى ، هو يسير نحوى فى صالة الجلوس من غرفَة لصيقة بها ، يحمل من مائدة هناك نسخة من كتاب نكروما الجديد «إفريقيا ينبغى أن تتحد» . قال «آه .. هذا أحسن . هنا يمكننا الحديث» . وجلس . فارقه العبث . بدا لى كوفى الاول ، كوفى

الذى عرفت أيام الطلب . كوفى المتأمل الشارد أيام طلبُنا العلم فى اكستر . موزع ألم بين باخ وبلندن . هوانى بعيد ، مع بام دت وكنياتا أعجلت أنا أسأله عن صدق ما يقول كثيرون عن مسودة الميثاق ، فاقترب منى ، عيناه فى عينى ، يُعنفنى كيف أرتاب ، وأعاد على كل الذى سمعت الفقيه الذى أعد المسودة وقال فى أناة تختار إختياراً كلماتها ، إن جماعة منروفيا إتخذوا اصاحبهم «الطاؤوس الخَرف» مطية فجاءهم بحاوٍ من الهند ، يلقى على الحيوية الإفريقية ماءاً ثلجاً لتجمد أوصالهَا تظل خانعة للغرب ، يظل هو على عرشه الطاؤوس ، ويظل للذاته الذين إختاروه إماماً ومَحجة ، حيث هم يمتعون بألقاب الرئاسة وأوهام السيادة . مضى كوفى يؤكد لى أن أوربا والولايات المتحدة أعدتا كل عناصر النجاح لهذه المسودة «التعيسة» ، بيد الذين ذُعروا من الوحدة ، لا بيدها هى . إن أكثر جمعنا سيقف مع هذا الميثاق ، ولن يأخذ بتعديل له أو تبديل .

سيدفع عنه رؤساء ووزراء حَذَقة كلام . مبينون ، سيفتنون من لا أرى لهم بعينه أتوا له من بلادهم بكلام يقنع ، وإن كان بعيداً عن الحق . الحسرة «يا أخي» إن أكثرنا جاء أديس وهو لا يعرف ما يريد ، وستكون هذه الكثرة فرائس «موهبة الفجوة» كما يقولون ، السفسطة .

إتكأ كوفى بظهره كله على مقعد وقال فى أس وصوت خفيض : «لكنا لن نُهزم للأبد . سيظفر هذه المرة الوَجلون من الوحدة وتنتهى مخاوفهم منها . مطامح الشباب لن تخنق» . وأعتدلت مُتجهاً نحوه ، فمال نحوى وأشتجر ، وضع يده تحت ذقنه وأتكأ على المرفق . فقلت إنه يُعطى الشيوخ والكهول من منروفيا كل نقطة ، وينسى الدم الدافق فى الرباط ، وأنه أعطى قدرات اللسان ما لم يُعطيه لقدرات الغرائز على السير نحو ما ينفعها ، والوحدة نهاية الأمر هى المنفعة . شىء آخر ، لا يُنكر الواحد حرص القوى الخارجية على منافعها . ولا ينكر الخيوط الإقتصادية والثقافية التى ما فتئت فى يدها لا بيد إفريقيا . هذا صحيح ولكنه ينبغي إلاّ يقود إفريقيا إلى القول بأن الشيوخ سيظلون حيث هم الآن لا يُريمون .«أنا واثق أنهم سَيرون النور مهما أوقرتهم منا القوى الغربية . سيرونه ، إن أردتَ ، خوفاً ، حياءً ، حرصاً . ستمشى جماعة منروفيا بعض طريق إفريقيا الناهضة من نوم السنين ، أنا ما عندى ما أخافه» .

«أنت تعظ»

«أنت تحتاج وعظى»

«كلانا فى العمل العام سنين . ما حاجتى لوعظ مما حاجتك لوعظى»

«يا أخى ، مهلاً ...»

«شوف أنت ما تعلمت . أنا تعلمت بعد أن إفترقنا» .

«أنت خنزير متعصب» .

«لا أنا جاد جد الموت . أنت إرتضيت الوظيفة فعرفت الورق .»
«أنا إقتحمت السياسة فعرفت الناس» .
«ربما كنت على صواب . فإنا تعلمت ؟»
«تعلمت إن السياسة صدام أشخاص»
«لا صدام أفكار ؟»
«الأفكار المظلة . الصدام الجوهر» .

ساقنا هذا الحديث لتجربة كوفى أيام كان يعمل للإستقلال جنب نكروما ووجدتنا نلتقى فى أن السياسة صدام أشخاص ، ذاك لأن الذى وقع فى السودان هنا والذى وقع قرينا فى مصر مثلاً ينتهى بك لهذا الذى قال به كوفى ، ما هو بالجديد على أيَّة حال ، مُنعشاً إن ذكرناهُ فى خلوتنا ـ تلك فى ڤيلا الرئيس نكروما فى حديقة فندق القيون فى أديس .

كان لابد لحديث النظر هذا أن ينتهى لنعود لحديث المؤتمر ولا أذكر الذى قُلت لأنهيه . لكنى أذكر كوفى يقول لى إنه سيعد لنا هو وأنا لقاء مع الأساقيفو وأذكره يزعم لى واثقاً «أنتم ستلتقيان فى كثير . جِسّه يقوده أكثر من عقله . تستحوذ عليه أفكار عاشها أيامه الأولى ، ويُعنى بالكلمة لا يصنع واحدة عوض أُخرى . كل واحده عنده فكرة حية» . وخشيت أن يُطيل وقلت أصرفه عن إلهه «المنقذ» نكروما . كما كانوا يسمونه . «المسيح الجديد» ولا تجعل صديقك صُرّة العالم . إنتقل بنا لما كنا فيه من حديث عن المؤتمر فما هناك واحد عبر التاريخ وصل أن يكون صُرّة «العالم» . عادت البسمة لوجه كوفى وتوسل إلىّ أن يقول كلمة واحدة أن أعقبه من ثرثرتى وما كان فى حاجة ليتوسل لأنه حين تتملكه فكرة يُصبح ، شلالاً مُربَداً يحفر الصخور تحته . «أنا أعرف أنك تسمع عنه ضراباً لا يرحم من يقف طريقه . هذا ما نريد نحن الرجال معه ، أن يعرف العالم عنه» . أنا مستشاره الإعلامى وأعرف ما أقول . إنه ما زال وطنياً كعهده الأول مع أساتذته دى بواوجورج بادمور . الا تراهما يطوفان حوله فى أكرا كما تطوفون أنتم بالكعبة . كلهم أهل نظر . نحن الذين ندفعه للسياسة ما كان ليضرب الأحزاب وقواعدها من القبائل وزعامات زمان ، لولا إلحاحنا نحن ، وضرب حين ضرب مُقفل العينين ، وما كانت فى عُدتنا السياسية يد أقوى من يده . كان يحول دونها والسياسة قلب مُضىء .

سارعت سألت : ماذا فعلتم به ؟ قال غير مكترث : «أطفأنا الضوء فيه ، كى تضىء أرض غانا وسماواتها» . ثم صمت طويلاً كمن يراودنى على الكلام ورأيتنى عاجزاً عنه ، فما هناك ظلام يضىء . نفرت نفسى من أن أتخيل رجلاً مظلم القلب يُضىء الآخرين من أهله .

وأعيد النظر الآن وأنا أكتب بعد سنين حافلة بالأحداث رأت ما لم تره سنون أخرى قبلها فى التاريخ ، فلا أرى بعين اليوم إلا صدق ما أحسست فى غثيان نفسى أمسى وكوفى يُحدثنى عن رؤيته السياسية . دم . جثث . غدر . ثم دعوى الضوء .

* * *

عُدنا للميثاق حين قلت «رضيت كارهاً أن السياسة صدام أشخاص فحسب ورضيت كارهاً أن الطريق للقيادة هو الذى وضعت . تخوض الظلام للضوء . امضِ فى خط تفكيرك عن الميثاق» فعل . إسترعى إنتباهى حين قال «إن علينا قُدامى ومُحدثين : منروفيا والرباط ، أن نقف مع الميثاق . ننسى الآن مصدره قُدوده الكثيرة . إن الغرب قادر على ضربنا بيد الإفريقيين مِنا ، وهم سند جماعة منروفيا حفظه منافعها لقاء إبقائها سلطانهم لهم . ما هكذا زعماؤنا . نحن جماعة الرباط فى كفنا منديل . إن الحَحنا على كل شىء فقدنا كل شىء . لن يُضير شيوخ منروفيا أن نختلف هنا ونفترق على خلاف . سيعودون لأهليهم يقولون لهم ، إنهم سعوا لتكون افريقيا هنا يداً واحدة على غيرها ، ولن يستحوا أن يقولوا عنا إنّا أردنا سَوْق شعوبهم سَوق الأغنام . سيلوذ سدنة العتيق والدارس بالمكر السىء ، لن يحيق إلا بهم نهاية المطاف . فما عندهم منشئات سياسية كما عندنا نحن من منظمات العُمال والشباب والنساء ، هناك صفوة قلة تجثم على جمهرة كبيرة . لا تعرف ما يعرف صبياننا . نحن إنتزعنا إستقلالنا إنتزاعاً من الأوربيين ، وأقتضانا الصراع تنظيم عمالنا وزراعنا وطلابنا ونسائنا وشبابنا ، فشركونا الصراع ويشركوننا الحكم والإدارة الآن . ما أنتزعت جماعة منروفيا إستقلالها على نحونا نحن . أعطى لهم الإستقلال هدية على موائد المفاوضات ، والقلة التى فاوضت هى التى تحكم لا تسألهم الكثرة الغافلة الطيبة .

* * *

قُلت «كوفى . أنت تُحاضرنى» فضحك ، قهقة «يا شقى . أنا أعترف بهذا مُبررى أنكم أنتم العرب لا تعرفون إفريقيا ، فقلت «إننا نعيش معهم فى القارة ولن يطول العهد بعد الآن . سيعرفون أن العرب ليسوا تجار رقيق وحملة دين مضى زمانه .. وسيعرف العرب أن الإفريقيين ليسوا أشباه ناس ولا ناس . سيعرف الفريقان أن تجربتها مع الأوربى واحدة ، نفس الشىء بين التجربة الإفريقية والعربية إختلاف ، نعم لكنه إختلاف تنوع لا تضاد . إن القوى السياسية التى تحرس شيوخ منروفيا المحدثون ، وهم يعرقون لإستقلالهم فى السودان ومصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب . هى عين

القوى التى تملك حتى الآن مصدر كل ثروة ولهم عند العرب كما عند الإفريقيين قوم بهم يستظهرون . نفعهم من نفعها وأذاهم من أذاها . ينادون بالتأنى والبناء من القواعد ، فأوربا لم تبلغ القمم التى بلغتها الا عبر قرون من العمل والرهق . ما بلغتها فى ليلة ويوم وعلينا أن نسير عين الطريق ، طريق الحكمة» .

ضاق صديقى حين بان له شىء قليل مما يجمع العرب والإفريقيين . أمسك بفخذى فى البدء ثم بسط كفيه أمامى يلوح بهما فى وجهى يقول :
«دعنى أسألك . متى عرفت الوطنية حكمة» ؟
«نعم ؟»
«إنتظر لحظة . ماذا سيكون من أمرنا إن تحلى رئيسنا بالحكمة» ؟ .
«ما فهمت» .
«يا رفيقى العزيز . الوطنية لا تعرف حكمة . الحكمة قدمى ..» .

وشرع يحدق النظر فىّ كمن يريدنى لأُعينه على سير فكرة الذى إنقطع مع الغضب حين عرف إن دعوة الصبر التى يقول بها الأوربيون فى إفريقيا هى عينها عندنا نحن . قلت أملأ الفراغ الذى يُخسه فى فكره أنى معه فى الذى ينعى على الصبر ودُعاته . وقرأت عليه مقاطع من شعر سيدنا العقاد عن الصبر .

لست عـلى الصبر مثنيـاً بـدأً   ما صحب الصبر غير ذى شجن

وكنت قد أُنسيت هوى صديقى الفنون ، من شعر وموسيق وتصوير ، وأنسيت أنه كان يجلس ساعات يستمع للسمفونية التى ما اكتملت ، وأنه كان على أيامنا فى اكستر ، يدرس فى الفصول قديم الشعر ويُشجيه ، ويقرأ بصوت أُصحل ممتع ، شعر زماننا ذاك : أودن ، مكنيس ، سپندر ، دلان توماس ، ومن حين لآخر أمامهم إليوت . ذكرت هواه حين رأيته يستمع فى شىء كالخشوع لترجمتى الشعر الذى قرأته عليه بالعربية ولن أُخفى عليك أنى أحسست بصبا حلو وطفولة عذبة ، وأنا اقرأ وأُترجم وكوفى يلتهم كل كلمة كمن يعيش فرحة خاشعة .

قال لى شيئاً عن حلقات القراءة والمناظرة فى جمعية طلاب ما وراء البحار التى كانت تجمعنا ، ثم إرتد إن كان هذا هو التعبير الصحيح عاد حيواناً سياسياً . قال إن العرب ينحرون أنفسهم بأيديهم . إنهم لم يبقظوا بعد لثروتهم الأولى . تركوا حضارتهم وثقافتهم وراء ظهرهم ، أنستهم الأزمات أنّ للحضارة والثقافة المكان الأول فى تقدم الشعوب. كل فنها عُرضة للإزدهارالصناعى والأقتصادى والمالى ، إلى آخر ما تعرف . ثم وقف عند غانا التى تسعى للكشف عن حضاراتها ، ولا يبخل رئيسها بمال على الذين يُعينون فى هذه السبيل التى قادت لتغيير «ساحل الذهب» إلى «غانا» وإلى تغيير

مناهج التعليم لتتفق ورغائب القارة فى معرفة الحقائق الخالصة عن تاريخ الإقليم «أتعرف إن يوسف بن تاشفين واحد من الذين يحدثنى عنهم إبنى لامتى . بطلاً من أبطال التاريخ فى غانا ؟» . وكعهدك بكوفى الآن وقد عرفته ، لم ينتظر مضى فى الذى كان فيه ، يسألنى عن قعود العرب عن إذاعة ما يستطيعون إذاعته عن حضارتهم وثقافتهم وسيلتهم الأولى للقارة . كانت كذلك فى الماضى القريب وما تغير شىء كثير .

* * *

ما كان فى وسعى إلا أن أتفق معه وهو يقول لى إن الذى يعرفه هو . واحد من المُستنيرين فى أفريقيا ، لا يعدو نُتفاً لا تُغنى مُترجمة من العربية للإنجليزية وهى إختيارات شخصية ، ربما عَنت من يختارها . ولا تعنى الإفريقى بالضرورة ، فاهتماماته غير إهتمامات الأوربى . إستمر كوفى على هذا النغم وانتهى بسؤالى مرة ثانية عن قعودنا وأضاف «على أيّة حال . كل الذى درست وأنا طالب لغات وأدب ، عبث . جهلاً من الأوربيين العاكفين منذ قرون على حضارة وثقافة العرب ؟ عمداً لا أدرى» . وكان نافعاً الحديث ، خلصنا منه إلى أن نلتقى أُمسية مع إخوة اقرأ بالنغم الذى قرأت عليه وأُترجم ، وكانت واحدة من أُمسياتنا التى سأذكر . لا لصفائها ونقائها فقط ، بل لأن كوفى ، كان آخر ذاك المساء رجلاً غير الذى ونحن فى غرفته ، فيلا الرئيس نكروما . قال حين عاد الحديث عن الجماعتين من الرباط ومنروفيا . «إن الحديث عن الشعر والفن والحضارة والثقافة يُحيل الواحد إنساناً يرى الناس بعين عاطفة ، وقد أنستنى ندواتنا السياسية فى كماسى وتكرادى وأكرا هذا الجانب منى ، وكُل رفقتى مثلى . تعيش حيوانات سياسية . لا مَعنىً من هذا إنه قدرُ أمثالنا فى القارة . لا يَعتبنَّ عاتب ـ علينا إن أُنسينا جوانبنا الأُخرى» وسألته فى الذى يفكر فيه ، ما الذى يدعو لهذا الذى أعرف وأيضاً أعيش ، كما يفعل هو ورفاقه ، قال «حملنى هذا الحديث البعيد عن السياسة على رؤية جانب آخر من جماعة منروفيا ، كان إنشغالى بالتنظيم والعمل مع عامة الناس قد حجبه علىّ . إننا نُخطىء إن أبينا على شيوخ منروفيا أن يكونوا ذواتهم . إن أردنا لهم غير ما أراد لهم زمانهم . ألسنا نحن وغيرنا أسرى زماننا ثُقِفوا على نحو وثُقِفنا على نحو خَبروا مواقف وخبرنا أخرى ، أتوا المنظر السياسى والإجتماعى وأوربا جبّارة لها أيدٍ وبسطة . ابت عليها القدرة المعنوية والمادية من أن تتواضع . وشيوخنا بَشر إن «وخزتهم أدموا» . أمرنا يختلف عن أمرهم . جئنا نحن المنظر وأوربا راغبة فى الحديث إلينا ، ترانا من أمرهم مثلهم . إننا ندعو لجديد يقتضينا مخاطر لأننا يقظنا ولا يليق بنا ألاّ نفهم خشيتهم الجديد . هيلاسلاسى ، تبمان ، بوانييه ، ليسوا جهلة أو حمقى . إنهم يدركون أن الجديد يعنى الدروب الطِوال ، وما هناك بقية من عمر ينفقونه

فى العناء . عاشوا عنادهم . قبل أن يولد بعضنا ، قبل أن يفتح عينيه على حالنا السياسية والإقتصادية ، أكثر قادتنا من شباب الرباط» .

ثم أطرق . رأيت فى الذى قال صورة المثقف المثالى ، طالب الحقيقة ، كاره الزيف شقيق الأنبياء .

* * *

عادت ذاكراتي تلكم اللحظة عشرين سنة وراء ، رأيت فيها صديقي الفنان كوفى قلت صادقاً مخلصاً أنى معه فى رؤيته الأجيال . أنى أحمد لنا أننا وإن بعدنا عن همنا الأول فى أديس . أُحس حين رجعنا بأنفسنا وراء نراهم ونرانا فى إطار تاريخهم الفكرى وتاريخنا نحن ، وقلت إن هذا الذى نقوله يَنبغى ألاّ يُنسينا أن الغرب فاجر . أُعطى شباب آسيا وإفريقيا فُتات معارف كى يُعينه على الإدارة الأقل تكلفة . صنع أدوات تصلح للدواوين . لو لم تكن قِلة فى آسيا وإفريقيا ، مضت طريقها لا تُبالى لما كنا هنا . رجعت هذه القلة لجذور حضاراتها وثقافاتها وأشعلت النار فى خيام أوربا اللاهية ، ينظر الواحد حواليه فيجد أن هذه القلة التى راحت معاهد العلم فى أوربا ، كانت فى أكثر البلاد الإفريقية والآسيوية ، نتاج رجال دين ذوى عِناد ومِراء ، أبوا أن يبدلوا عيشهم العزيز الذى إرتضوه ، بعيش آخر يحملهم عليه الأوربى بحديده وناره ، يشيع كذباً وإفكاً إنه جاء ليُعطى (الأهالى) عيشاً أرفَه وحياة أصقل . الصفوة السياسية الجديدة أخذت المشعل من قادة الدين فى أكثر من مكان ، الجزائر فى الشمال مثل لهذا ، كذلك نياسا لا ند فى الجنوب ، الصومال فى الشرق والكنغو فى الغرب الوسط . رجال الدين حفظوا على العربى ذاته رجال الدين دفعوا الإفريقى دفعاً ، ليعلموا الكنيسة البيضاء ، إنهم بيضا وسوداً إخوة أكفاء لا فى الدين فحسب ، بل فى كل شىء .

هَمَّ كوفى بالحديث لكن الهاتف ألحّ والحّ فجرى نحوه وعاد ذراعاه على كتفيه مرتفعتان تهتزان بجسمه يساراً ويميناً ، يقفز أحياناً ، يداه تلمسان السقف . قطعة فَرحة . رأسه يهتز يُسرة ويُمنة على نغم لا بد كان يسمعه داخله . أجاب على صمتى السَائل «معذرة ، أخ . هيا» ثم هادئاً فى نغم صوت لا هو بالحاد لا هو بالعابث بين بين . «جلستنا هذه مُذكرة . رجلان ولا امرأة واحدة» قُلت «هذا غير إفريقى . لا يقع هنا» . قال «الإفريقى متعته المرأة ... الإفريقية شغلتها الرجل» . قلت «هذا ينطبق على الناس فى كل مكان» قال «الفرق أن الإفريقى لا يخفى هذه الخِلّة ، لا يحسبها سراً من الأسرار ، يمارسه فى الخلوات والحُجرات بعيداً عن أعين الرقباء» عرفت من فرحته أن فى الأمر إمرأة ، وما أبعدت فى ظنى .

خرجنا للحديقة الكبيرة أمام وخلف ڤيلا الرئيس نكروما ، على طريق تقوذ لمدخل أضافة الأمبراطور لمداخل اللجنة الإقتصادية حيث تعقد جلسات المؤتمر ، ولدى الباب تلقتنا مريام ، أسرع كوفى يُعرفني بها فقالت وقلت فى نفسى واحد ، «إلتقينا» وقال «متى» قالت مريام «نحن الكادحون» هُنا منذ أُسبوعين ، أنتم الكُبراء جئتم امس» وأحنت راسها فى عبث عابث «يا سيدى المستشار» . قلت وقد جزعت من إلاّ أشركهما الحديث ، يستأثران به دونى «وأعددنا لكم فكركم . هيأنا لكم كل الذى ينبغى أن تقولوه» . وأمسك بكفها وكفى أنا صديقنا كوفى لنفسح الطريق من على الباب ، وسار ممسكاً بنا للصالة الطويلة خلف القاعة الكبرى ، وهو يُلاحينا يحدثنا عن رجل الإعلام يصوغ أفكار الرؤساء والوزراء كلمات هى التى تبعث الحياة فى الأفكار . إنهم المبدعون لا نحن الذين نقضى الليالى لنستقر على رأى . الكلمة تخرج الرأى ضوءاً ينير إن أردت ، ومسخاً من القول تنساه بعد سماعه أو قراءته وجلست مريام على أريكة وقربها على مقعد جلست ، ووضعت مريام ملفاً كان فى يدها على الشطر الآخر فى الأريكة يجلس عليه كوفى حين يعود من المقهى . وكان قد ذهب إليه .

* * *

قالت لي مريام وقد إبتلع الزحام كوفى «السلام عليكم» سألتها إن كانت تعرف أكثر فقد سمعت هذه التحية مرات منها ، قالت آسية حزينة أنّى لها . كانت تروح «الزاوية» الخَلوة . تجلس على حصير تردد ما يقرأ عليها المُرابط من آيات القرآن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، قُل أعوذ برب الفلق﴾ قرأتها فى عناء ولحن ، وكانت تختلف لمدارس الفرنسيين فتسمع عن القرآن واللغة العربية ، حديثاً ريقا لا تسمعه فى «الزاوية» ولا فى البيت فتفتن بالقرآن وبالعربية ، تتحرق لهذه اللغة التى تحدثها عنها معلمتها الفرنسية ، وعن حضارة حملتها هذه اللغة القرون فى أحشائها ، وثقافة غالبت جحافل القهر . ولا سبيل لمريام إليها . تغار من معلمتها وعلى ذاتها تتحسر . كانت بهذه اللغة الفاتنة أولى . عيناها فى عينى تُطيل النظر . وقفت الحدقتان . أحس برشقات توجع القلب . أقول كلاماً لا يُفيد عن أزمة القرآن وأزمات لغته . مريام فى الذى بان لى من بعد ، ما كانت إفريقية شغلتها الرجل ، وإن كانت أنوثتها حولها تلفها تجعلك تذكر : «وعبدناك يا جمال وصغنا ..» نعت على المرابطين خمول ذهنهم . ما أجهدوا أنفسهم ليعرفوا الذى يقرأون . حفظوا القرآن كله عن ظهر قلب ، عنهم حفظت هي ولداتها القليل الذى تيسر . لتُصلى . نعت على المرابطين . أنها فئة أغوتها فرنسا إتخذتها درعاً لغاياتها الإقتصادية والثقافية ، وأنستها الذى كان من أمر أسلافها بعيش فتات وكان عيشاً رافهاً إن قِسته بعيش أهلها فى «التكلات» وفى الصحراء .

زاد الضيق مريام حسناً . أثارها ما تقول . أمسكت كفي بكفها اللدن وأصابعها الناعمة فى أصابعى ، صرفنى أساها العذب عن مفاتنها الآخذة ، ولمحت كوفى يقترب فى يديه صينية وأحسست بأنى أعمل على فكاك ، وأنها تعمل على إرتباط أوثق ، ومضت فى حديثها وكوفى يضع أمامها قهوتها وأمامى قهوتى ، وأخذت ملفها من على الأريكة ، جلس جنبها كوفى وهى تقول لى على سمع منه ، إننا نحن العرب نستحى من أننا مسلمون . مالنا أمر . إستخذينا ــ وهذه كلمتها ــ أمام سيف وثقافة أوربا . وأكثر المسلمين ــ سامحنى ، مخاطبة إياى إستخذاء العرب المسلمون فى القارة الإفريقية أعز نفراً ونفساً . كان المُسلم الإفريقى يهاجم الأوربى لانه كان يعرف تاريخ رفضهم له ، يخشى الأوربى أن تعود أيام أشياخهم الأوربى الحاج عمر ، والشيخ تورى مثلاً . كان صديقى كوفى يستمع ، كله أذن تصغى ، قال مازحاً إنه يعرفنى منذ كانت هي صبية «حاذرى» . إنه ذئب ، طوقتنى مريام بذراعها . كنا قريبان . هى على الأريكة وأنا على المقعد . قربها . قالت «استغفر الله» . كان لحناً . كان خير كلام . ما كان ما تجزع له ، لا يصرفها عن عملها السياسى ما يقول واحد ، أى واحد ، عن عذوبتها . ذاك تعرفه ، وسمعته مرات ومرات فى كل عاصمة إفريقية ، صحبت فيها رئيسها سيكوتورى . واثقة ، «ليست لشىء آخر الليلة تسهر» . ما عناها هَذْره عن الذئب . ما كانت فى الذى رأيت ، إلا طروبة للذئاب ، أنثى كاملة . خياره لكن .

بدأ الأسى على عينيها وهي تقابل فى ذهنها بين المسلم الإفريقي والمسلم العربى ، وكرهت الضعف أمام كوفى ، أهاجها ما تقول «هزت رأسها تطرد ما ازدحم فيه ، لتعود لحديث السياسة تسأل عن الذي كان يدور بيننا فى ڤيلا الرئيس وعن الذى عرفنا ، سمعنا فى لقاءاتنا مع الوفود الاخرى . ما كان فى حديث السياسة ما تخجل له ، تُخفيه . أوجزنا لها الذى انتهينا إليه ، وبان الرضا على وجهها وقالت أنها انتهت لهذا الذى انتهينا إليه .

على جماعة الرباط أن تجمل فى الطلب . عليها أن تلح فى المثال الذى جاءت لأجله . سيستحيل كل المثال فى الذى رأت وسمعت من الوفود لن يستحيل شطر منه إستحالة كاملة . تلك طبيعة الأشياء فى السياسة لا تعرض عليك حَسَناً وأحسن منه . تعرض شيئاً وأسوأ منه . وكان كثيراً ما سمعت ورأت وساقت لنا دقائق عن مواقف رجال الوفود ، قادة رأيها ، والرجال لا يحجبون شيئاً عن النساء يقولون كما تعرف أكثر مما يعرفون أحياناً . المعرفة عندهم قوة ، والرجل منذ أن كان واهماً ، يظن المرأة تأسرها القوة . على جماعة الرباط أن تدفع الحوار مع شيوخ منروفيا حتى تصل ذَروة الأزمة . تدفع بالأزمة لحافة الهاوية وتعود تَرضى بالذى يُمكن . هدأ بالى . فقد كنت أعرف أول أيامنا فى أديس أن شباب قينى لن يقنع بالدُون . إنهم إمتداد لقائد فكرهم

وحسهم ، سيكوتورى وكان جُجمة نار تلكم الأيام . أما كوفى الذى كان يلعن الأناة والحكمة قبل ساعات جعل منى شاهد زور . كان كل حين وآخر يتجه صوبى ومريام ماضية فى حديثها ، يُسائلنى «ألم اقل لك هذا» ؟ أهز رأسى أن نعم ، وما قال لى شيئاً من هذا . استر أخاك . سَترته .

* * *

وظفرت به مريام على صعيد آخر ، غير الصعيد السياسى ، وما كنت أعرف أنها تهوى الفرائس . تجمع الرؤوس المتدحرجة من على أكتافها ، كما كان يفعل بالرؤوس هولاكو . تجلس على قمتها تضحك . كما كان يفعل نيرون يُغير انغام نَايِه كلما بَقر بطناً من بطون أصحابه وأعداءه سبعُ من السباع فى الكلوزيوم . كان كوفى يسمع لا يفطن . عيناه لا تستقران فى حدقتيهما . ترعاهما مريام بعين مغمضة وأخرى أهدابها عليها مُسدلة وأضواء النيون فى الصالون الكبير ، أبهر من ضوء الظهيرة ، تبين كل شيء أضعافا مضاعفة فى الحجم . فى جوف مريام غريزة عابثة بشهوات الرجال ، أدركت أن صديقى كوفى واحد ممن يرون كل فستان امرأة هلوك . راحت تمتع نفسها بلعبتها بأشباهه من أهل الشبق الغافل . رأى صديقى ساقين ممتلئين لا أعرف كيف تأتى لمريام أن تمدهما مدا على ثيابها المسكة ، وتستقر عليها عينا كوفى . فتقفز على عجل تهز خصرها وتجلس على نحو يرى فيه كوفى عجزا لا يراه فى بلاده ذات العجز الركام . كانت مريام «ريا الروادف غادة الصلب» . رأى ما خيل له أنه صغير لا يملأ كفيه إن هو أمسك به ، ولم تتح له مريام أن يسير مع خياله . أقبلت عليه ، فإذا هو أمام صدر يعتدى على كل عرق فيه ، ثديان ينفرجان عند قميص يجهد نفسه يمسكهما عليه ، يلهث من نفورهما وثورتهما عليه ، ولمثل هذا اصطنع الرجل القميص واصطنعته المرأة . ساتراً لقبحه حافظاً قيماً على محاسنها ، وكان قميص مريام «خلطة» من ألوان أفريقيا البهيجة تزيدها بهجة «قصة» باريس . مريام خلاصة لقاء الحسن الإفريقى بالصنعة الأوربية .

عفريت بداخلها تلذه عذابات الرجال ، وما كانت واحدة من اللائى يقضين أحسن أوقات المساء والليل فى حديث لا يغنى . مريام تعرف أن الأرض تحت أقدامها ثابتة . تختار من ترى فيه كفاءة لها فى الذكاء والشهوة ، وكان كوفى ابن حضارته وأنف اكستر راغم . ما رأى حضارة مريام إلا حين سمعها تقول لى شيئاً مما قاله هو عن ثقافة وحضارة العرب ، لا تجيئهم فى القارة إلا عبر ترجمات يختارها العاشقون لهذه الحضارة والثقافة ، والإخلال كتب يكتبها المختصون للمختصين ، عسيرة على من لا يعرف الأوليات .

فرغت من نهم عفريتها العابث ، أشبعته إشباعاً يتلوى تحت أقدامها كوفى أسير عجز مريام . أقبلت نحوى تقول فى حياء لا أثر لصنعة فيه ، إن وفدها سيسعد حين يسمع منها الذى إنتهينا إليه من رأى ، واعتدلت قائمة «السلام عليكم» ومشينا ثلاثتنا نتفرق ، نلتقى بغيرنا ، كمألوف المؤتمرين فى هذه الندوات ، وقلت «قد ذهب الليل إلا أقله . تعالوا نُعطي الرؤساء حقهم ، نسمع بعض الخطب» ولكن مريام كانت أحرص على لقاءاتها الأعضاء وقالت لى أنها ستقرأ الخطب ، وتحب أن تصرف ما بقى من نشاطها مع الناس تتحدث ، وعلى أية حال ، «أنا جائعة ، أموت لا أذكر متى أكلت». وتبعها للمقهى كوفى «هيا ، وأنا عطشان» . دخلت أنا القاعة .

* * *

«فى صراعنا للإستقلال رمينا أول ما رمينا للإستقلال السياسى فى كل بلد من بلادنا المستقلة الآن . عبرة هذا أن إستقلالنا الإقتصادى وتحررنا الثقافى لن يتحقق بغير الوحدة الإفريقية ، وحدة سياسية كما كانت الحال فى بلادنا المفردة ، مشينا فيها القليل الذى نستطيعه الآن فرادى من إستقلال إقتصادى وتحرر ثقافى . لا أُحب أنا، يا إخوتى ، أن ننسى أننا حين دعونا للإستقلال السياسى ما دعونا له حلية على صدورنا تتدلى ، شقينا له كى يكون أداتنا للإستقلال الإقتصادى . تلكم الوسيلة هذه هى الغاية . إيمانى وأخاله إيمانكم أنتم فتجاربنا فى الصراع واحدة ، هو أن تحقيق الوحدة الإفريقية لن يكون لنا ، إن لم نَسِر نحوه بعزم سياسى . على تجاربنا فى العمل لإستقلال بلادنا المفردة . ينبغى أن يقوم إيماننا بقابل أيامنا . تعمل لوحدتنا كما عملت لاستقلالنا لا غناء عنها ، إنها طوق النجاة ، سبيل الرخاءوالظفر السياسى على أنفسنا هو سبيلنا لوحدة القارة ، كى يطعم الإفريقى ثمرات عرقه ، كما كان يفعل قبل أن تغتال إستقلاله أوربا . أتت لعيشها الأوفر ، تريده على أجساد أسلافهـاأن إقتضت الحال أن يمشوا عليها . ذلك العيش الأوفر غاية كل إفريقى لقى ما لقينا من عناء وعنت نحن الذين ردنا السبيل» .

هذه فقرة من فقرات حديث نكروما ، ولا أريد لك أن تحسبنى واحداً من عُبّاد البُطولات حين أكثر الحديث عن الرجل المأساة . قلت مطلع حديثى أنى أطوف بذهنى فى الذى رأيت وأحسست لأضع بين يديك صورة ما كان كما رأيت أنا الصورة . الوقائع فى محاضر الندوة ميسورة . أنا أقدرها ولكن غير معنى بها لأنها فى الكتب مائتة تفتقد الروح كما قلت ، التاريخ يقود المؤرخين أى سبيل يشاء . «التاريخ عاهرة وأجيرة . يخدم الطيب والخبيث من القضايا . لا يعنيه . يكذب علينا إن أراد حتى آخر لحظة فى تحقيقنا معه» .

وجفرى بارا كلف الذى أغلظ على التاريخ هكذا يعرف ما يقول . إنه فى صدر مؤرخى هذا الزمان. أحد من الأسياد. جاء أوان أن يمارس المؤرخون عندنا رؤية ابن خلدون للتاريخ رؤية من تبعوه بإحسان ، فيكو ، كروتشى ، شرمنتى ، برلين ، وأكره أن أكون ذاك الدعى . أقول أنى أحيط بالذى أحاطوا به ، لكننى لن أصدقك إن لم أقل لك أنى أعدت قراءة «ثُلاثية» نجيب محفوظ بعد أن وقفت لدى شرمنتى يعلمنى أن «الحرب والسلام» رواية أبقى فى صحائف التاريخ عن نابليون وروسيا . اكثر أثراً فى النفس من بعض ما رصد المؤرخون عن تلكم الفترة فى تاريخ أوربا . أحب للذين يحسبون أن القصص والروايات والمسرحيات تزجية فراغ أن يفكروا ثانية ، إذن يجدوها تزجية فراغ نعم ، وإن أنعموا النظر على النحو الذى يفعل المعاصرون من تلامذة من ذكرت من المؤرخين فى الولايات المتحدة وأوربا والإتحاد السوفيتى ، أصد ق أنباء وأمتع مما يكتب لنا الإخباريون الذين يترسلون ، يرصدون الذى كان رصداً ، فتقف الأحداث عقيمة جنب بعضها لا متعة فيها ولا ضوء يَبين ، ما هكذا التاريخ .

دعنا نعد للذى كنا بصدده . بدأت بنكروما وما كان أول من تحدث . بدأت به لأنه كان يُمثل الحلم الكبير للسود كل مكان . هذه واحدة . الأخرى هى أن أكثر من خفّوا لأديس لا يستحقون عناء تعريبى كلامهم لك ولا يستحقون عناء قراءتك لهم . حتى وإن عرّبت الذى قالوا بلغتهم الإنجليزية والفرنسية ، وما عندى وقت أضيعه فى تعريب الذى قال تبمان والذى قال بوانييه والذى ضل به الناس هيلاسلاسى . أقول «ضل» عامداً لقد حَمّل الدبلوماسية أحمالاً لا تطيقها . كان كلامه كل شىء لكل أحد . أقرّ العيون. الدبلوماسية ليست خداعاً كلها . بعضها القليل الخداع . وأعنى بالخداع ، التعابير السياسية التى يلتحف بها الدبلوماسى ليصل غايته ، لا أعنى بالخداع الكذب أو الشطارة الجوفاء .

وبدأتُ بنكروما لأنه كان قبلة الشباب السود ، وكانت إفريقيا قبل ثلاثة عشر عاماً كُلها شباب . كان الحديث فى الأسبوعين اللذين سبقا مقدم الرؤساء يدور أكثره حول نكروما وناصر ، شغلت بهما صحافة الغرب ووكالات أنبائها إنشغالاً ، وشغلت بها الكتلة الإشتراكية . هذه لا ترى فى واحد منهما سيئة ، وتلك لا ترى فى واحد منهما حسنة . مثاليات نكروما فيما أذاع الغرب شطحات ماركس ذى هوج . ناصر «هتلر» جديد على ضفاف الليل يُمسك بخناق الغرب . وكانوا ضَللة فاسقين .

كان عبثاً أن يضيع وقته واحد منهما ، يزيل هذه الصورة التى إختارتها سياسات الغرب والشرق ، فما كان فى مقدورهما أن يفعلا ذلك ، يُصارعان أقوى وسائل إعلام عرفها التاريخ القديم والتاريخ الحديث . إن صارعا لقيا أمامهما ساسة جعلت منهم ثروات وترسانات بلادهم ، رجالاً إن حمقوا وإن سفهوا . دالاس يسب الحياد كما

تعرف ، خروشوف يسب العباد كما تعرف ، وتردد الدنيا مآثرهم هذه . أنى لبلاد صغيرة تحبو أن تُقارع بلاداً كبيرة تعتو بالبذاء والحذاء .

إنصرف نكروما وناصر فى الذى يرونه ينفع ، ووجد كلاهما أكثر من عوض للسب والشتم فى شباب إفريقيا وشباب العرب ، وما كان غافلاً أحدهما عن هذا العبء الذى يثقل الكاهل ، أى كاهل . أقرّ كل منهما بقدره ومضى سبيله يُرهق نفسه ووطنه الأصغر . نكروما أرهق غانا ، كما أرهق ناصر مصر وأهل مصر . وكانا يعرفان ما يفعلان . الإقرار بالأقدار محمدة فى الذين يتصدون للعمل العام .

* * *

جاء نكروما يحمل كتابه «بيمينه» ولا أقول «بيمينه» تزيُداً فى الكلام ، أقوله لأن «إفريقيا ينبغى أن تتحد» كان قد أحدث أثره فى القارئيه حين نشره على الناس رُسله للمؤتمر قبل أسبوعين من مجيئه أديس . دخل قاعة المؤتمر فى «الكنتى» الذى اتخذه زيّاً لنفسه وقومه ، يكشف عن كتفه وذراعه كله . وهى غلالة مدرسة حمراء ، تزينها نقط بعضها أسود شديد السواد خلف الحمرة وبعضها أبيض شديد البياض خلف الحُمرة ، تلف الصدر تحوطه وتتدلى حتى لا تستبين النعل فى القدم . الوجه ناعماالأبنوس ـ دهن أمس ـ العينان محمرتان قليلاً ، القصر فيه لا تزدريه ، لا لحم وشحم تعافهما ، وما كان بالمعروق تحقره ، وأنت تحد النظر فيه جالساً بين رئيس الجلسة ذاك المساء ونائبه . كان جالساً عيناه عليهما أهدابهما لا تراهما ولا تريان ، يسير لمنبر الخطابة وقد فرغ الرئيس من طقوس تقديمه . وقف على المنبر لحظات ما كانت لحظات حصر أو عَيٍّ. كانت لحظات إثبات سلطانه على سامعية. تدور عيناه علينا فى القاعة وترتفع للشرفات والمقاصير . شرع فى حديثه الذى نقلت لك فقرة من فقراته ، ثم جاء عند أخرى ، أعادت لذهنى كيانه كله ، فكره الذى تكوّن مع السنين صبياً فى أشموتا ، شبيهة كلية غردون عندنا ، لاشىء غيرها فى كل غانا . هجرها للولايات المتحدة إلى لنكولن وهوارد حيث لقى أباه الروحى دبوا ولقى زوجته ، وراح من بعد لبريطانيا يتنقل فى عواصمها يلقى طلاب إفريقيا يبشر بالذى كان مادة حياته كلها ، إستقلال إفريقيا . فى أول مؤتمر للسود فى مانشستر عمل مع منابع إلهامه دى بوا وكنياتا ، وسلفستر ، وألهب خياله بادمور بوضوح رؤاه وقدراته التى لا تحد على الإبانة عن رؤاه ، وأنعش ذهنه أبراهامز ، الذى قال ناقد إنه يكتب كما تكتب «الملائكة» . سود من أمريكا وجزر الهند الغربية والقارة الإفريقية صنعوا نكروما الأول ، فكانت أيامه الطاهرات التى بقيت معه حتى أديـس ، عشرين عاماً بعد ما نشستر ، قضاها يدفع

تارة بالحسنى و«يبتلى فى ذى الحياة ويبتلى» . أقبل على ورقة أمامه يجزم لزملائه فى أول ندوة إفريقية خالصة لا كسابقاتها ندوة للسود كما كانت مانشستر وكانت أخواتها بعدها .

«إن وحدة قارتنا ، ستقتضينا عزماً أوفى من الذى إقتضاه إستقلالنا السياسى فى بلادنا العُدَّة ، لكنى هنا معنى بشىء أحبه أن يكون فى أذهاننا طول فترة الصراع . يستحيل أن نُحقق الوحدة ونحن نُعايش الإستعمار . المساومة على الوحدة لا يُمكن أن تكون سبيلاً لها . لن نعطى نقطة لنأخذ أخرى . إن فعلنا دخلنا طريقاً مُروِّعة . طريقاً أجزم لكم يا إخوتى ، أنَّا حين نصل نهايته ، تكون قد فقدنا إستقلالنا الوطنى ذاته . هذا الإستقلال الذى نملك الآن ، وضع لنا مصباحاً على طريق الوحدة لا أكثر . المملكة السياسية فى البدء والختام . أعطينها . كل شىء بعدها يتبع . قليلاً يهون . لن نصل الوحدة الإفريقية إلاَّ عبر المملكة السياسية . لن نُصيب ما نريد من تقدم إقتصادى وعلمى وثقافى وإجتماعى ، إلا وبيدنا نحن مفاتيح أبواب المملكة السياسية ، مدخلنا للوحدة .

خذوا الولايات المتحدة . إنها كانت قراراً سياسياً وتبع كل شىء بعد . خذوا الإتحاد السوفيتى . إنه كان قراراً سياسياً ، وتبع كل شىء بعد» . كان نكروما يقرأ فى أناة عَجلة ، يحتوى بعينيه سامعيه فى القاعة ، تدوران ورأسه مكانه لا يَريم ، يريد لكل عبارة أو كلمة بعينها أو تنقل عن ذات نفسه ما يحس به وليطمئن قلبه على بُغيته هذه يقضى لحظات مع الكنتى يرفع طرفه الذى إنحدر عن كتفه وهو مطل بجذعه على المنبر يرعى المؤتمرين ، أوراقه تحت صدره ، تركها حيث هى لا تحول دونه ودون السامعين ، وكان لا يستحى أن يلجأ للمسرحية فى خطابه واعياً لها حاسباً إياها . تُعين المسرحية العبارات والفكر أن تكون شخوصاً بدمها وعصبها ، تعرف قسماتها إن لقيتها ثانية .

يترك جانباً المسرحية. يشرع يقرأ أرقاماً عن ثروات القارة الافريقية، عن أرضها ، مائها ، معادنها ، حيوانها ، ثروات مائها ، طاقات شلالاتها ، سواعد بنيها الكُثر . يقف هنا كمن يستلهم السماء ويمضى حزيناً آسِياً ، عيناه على عيوننا ذراعاه فوق كتفيه . لا نملك إلاَّ أن نشده حين يقول ، ارتخت فى مفاصلها السواعد ، إستخدمتها أوربا لنفعها هى وما كانت تعمل ما يشد سواعد الرجال . كانت تجمع الثمر من على الشجر والشجيرات لقاء أكله بَخِسة ، تحفظ عليه رمقه ليمضى فى عمله هذا . ثم يرتخى على جسده لا يعمل غير قليل ، ثم إكتهل يُلقيه للصقور ، ما حاجته به . تاريخ إفريقيا شاهد عدل هذا الذى أعاد للأذهان نكروما . كان يقول بإفريقيا جديدة تُعمل سواعدها لنفع أهليها لالترف المترفين فى أوربا . يقول إن إفريقيا عندها الذى تُعطيه لأهلها ويفيض . الأرقام لا تعرف الهوى والغرض ، الأعلى يد من يَنتَقُون منها إنتقاء

عامِداً ليدللوا على شيءٍ بعينه . ثم فرغ من هذا الشطر فى حديثه ، رفع عينيه من على ورقته ثانية ، كَفَّاهُ حول مقبض المنبر . إستقام وصمت غير قليل . مسرحية ، تُعين الأثر .

رأيته بعينى بصيرتى يخال نفسه يخطب فى جموع أكرا وتكرادى وكماسى . فى الزراع والعمال والطلاب إنتزعهم إنتزاعاً من الوطنيين الذين كانوا قبلة فى الحياة السياسية ، ومن زعماء القبائل أفقدتها حروبها الخاسرة مع أوربا بسالتها الأولى . وألقت بها بعد دَحِرهم وإذلالهم أشباه سلاطين ولا سلطان نصيبهم منه «كسوة شرف» أو قلادة من خرق ، ثم جاء المغيب على يد نكروما الذى جمع الجموع حوله . ما كان فى حساب البريطانيين وهم الذين شغفوا حباً بقلة من أصدقائهم أن السود سينازعونهم سلطانهم المحروس فى البر والبحر يوماً من الأيام . رأيته يومذاك يستقيم واقفاً وفى حَدَقَتَى عينيه تلك الجموع لا نحن فى القاعة . ما ظننت لحظة أنه معنا . ظننته غافلاً عمّا حوله . كلنا كان واحداً من شعبه الذى جُمع حوله يُقارع الخصوم فى الدار والخصوم عبر البحار . وما أظننى أبعدت حين ظننت هذا فقد عاد بذراعيه على مقبض المنبر ، يتحدث فى نعومة ثم رفع يُنعم فينا النظر لا فى ورقته . قال «إن لم نصنع الوحدة الإفريقية الآن ، ستجدنا كلنا فرائس إستعمار جديد . نحن الجالسون هنا اليوم فرائس الغد» وهدر لا يقول شيئاً ذا بال ، لكنه ما ختم الحديث بالهدير . مشى خطوات طويلة نحو الغُلاة من المحافظين ، جماعة منروفيا ، ونحو الذين يريدون لفكره ألّا يعدو القاعة ، ويقينى أنه كان يتحدث لأصدقائه فى مجموعة الرباط ، فما كانوا فى الحقيقة ذلك الحميم الذى خاله الناس .

كان لكل حضارة وثقافة وتاريخ ودين ، ومزاج ، كان كل قائد نتاج هذا كله . ما كان منطقياً أن يلتقى الحسن وناصر وبينهما ما تعرف آنذاك من علائق . كان منطقياً أن يلتقى بسيكوتورى وبينهما علاقة روح سرت من بلاد الحسن لبلاد سيكوتورى . إلتقى هذا الفريق الشباب الطاهر على قاعدة سياسية لا قاعدة غيرها من القواعد الأخرى التى تربط الناس أوثق . قال نكروما كارهاً ، حصافته تصله بزملائه فى القارة لا وسيلة أُخرى تصله قال :

«لن يعنى هذا أن يذبح بلد من بلادنا سيادته الوطنية قرباناً على محراب القومية الإفريقية ، كبيراً كان ذلك البلد أو صغيراً ، بلادنا تتساوى غير أنى أقول أننا نستطيع هنا والآن ، أن نتفق على مواطنة سياسية واحدة لنا أجمع . هذه فى وسعنا . شىء آخر : ما هناك ما يحول دون أن تكون لنا عُملة إفريقية واحدة . أدعوكم لنجعل من بلادنا المستقلة منطقة عملة واحدة وأن نتفق على إتحاد جُمركى ومصرف إفريقى . هذه أمورنا

علينا أن نُدبرها وإن شَدّ النكير علينا سادتنا السابقون ، تعالوا لا ننسى السياج والسور . أذكروا إن نسيتم مكان القوة والمهابة فى علائق الدول ، لن يحرس هذه المنشآت الإفريقية إلا نظام دفاعى واحد يلمنا أجمع . لن يصعب علينا أن نبحثه الآن ونصل به لرأى يُمثل كل إتجاه عندنا وكل فكر .

هنا أقف كى أقول ما ينبغى أن يكون فى خاطرنا كُلنا الآن . لا أحسب واحداً منا يُقلل من أهمية هذه الخطوة فى تحرير سائر القارة ، ودون تحريرها صعاب ومشاق علينا أن نتحملها دون مَنّ أو تَأذٍ ، فاستقلالنا أجوف إن لم يستقل سائر الإخوة فى القارة ، إستقلالنا لا معنى له» .

ووقف طويلاً عند تحرير سائر القارة ، ثم عاد لخط تفكيره الأول عن الوحدة الإفريقية : ـ

«يقول إخوة لنا إن الطريق للوحدة بيننا لم يجىء بغير تمهيد يسبقه . أنا لا أُحسُّ هذا . إنها فلسفة ترانا جسداً واقفاً مكانه لا يسير . لا تمسها الشئون حولنا فى القارة وحولنا فى العالم» .

وقفت القاعة والشرفات والمقاصير تُحى نكروما وطالت تحيتها تحملك على اليقين بأنها ليست تأدباً كما هى الحال فى المؤتمرات . بدت لى وأنا أسمعها وأراها تحية خالصة لخطيب حَذِق يُزين كلماته بمسرحياته . أيقنت أنى ما جانبت الصواب حين رأيته يترك منبر الخطابة فى مسرحية متقنة الأداء . الناس وقوف ، الصفقة فى إيقاع ، إنه ماض فى سبيله لا يلتفت يُسرة أو يُمنه ، يمشى فى تواضع متكبر بين الصفوف لمقعده وسط أعوانه ، ثم يبتسم يُمنه ويُسرة ، يُبيح للمصورين والمصورات ومعدات التلفزيون ما يشتهون من ثوان كي تعمل آلاتهم على مهل . كان نكروما من أكثر الرؤساء شهوة للإعلان عن ذاته ، وأكثرهم معرفة بأدوات هذا الإعلان .

قيل لى أنه كان يريد ليصحب جوقاً من العازفين والمغنيين والراقصات على نغم الهايلايف ، الموسيقى التى أفرقتها غانا وأرتبطت بها ، ولكن أديس ما تيسر لها أن توفر المكان لجوق كامل ، وعندى ما يحملني على الريبة فى هذا العُذر . لا أقسم ، لكني أجزم إنها كانت مماكرة وخديعة من الشيخ هيلاسلاسى فقد كان هو نفسه مفتوناً بصورة والحديث عنه ، ذا عينين بصيرتين فى الدعوة لذاته . خشى أن تُنافس الهايلايف فتيات وفتيان «أقر فكر» المسرح القومى الأول فى إديس ، وكان الشيخ قد عَرف مكان المرأة فى السياسة والزينة . منذ أيامه الأول ، عرف مكان الكلمة والصورة فى الدعوة له وحده .

* * *

سنعرف حين يكتب تاريخ أثيوبيا بعيداً عن أثره القاهر ، إن كان حقاً أنه أتى العرش عبر حجرة النوم ، عززت الدعاية دهاءه السياسى وجنوحه للدم إن اقتضت الحال ذاك . كان يعرف أثرها عن غريزة لا علم من بطون الكتب . نكروما كان يعرف إفريقيا . درساً وغريزة . أعطى الهايلايف كل الذى تُعطيه دولة ذات مال ، وكانت الأغنيات والرقصات أفعل فى الدعوة له من خطب وكتابات الدعاة فى القارة . أنا أعرف واحداً من رجاله بعث به سفيراً لبلد صغير ليتفرغ يكتب كلمات وألحان الهايلايف ، وكانت هذه موهبته لا موهبة عنده تقعده مقعد السفير .

كانت عيناه على الدعوة لذاته عمره كله . رأى فى الهايلايف موسيقاها وأغانيها الهائجة الصاخبة الزاعقة تعبيراً عن الإفريقية ، وهى لا تُنكر لذاذات البدن ، ولا تُعرض عن ألهتها الأولى ، لا تزور عنك أو تجفوك لأنك أطعت غريزة من غرائز كل مخلوق : إن جاع أكل وإن عطش شرب ، وإن إشتهى جسداً إستجاب . ما وَزعت الحيوية الإفريقية نواقيس الكنائس وإن كانوا لها يستجيبون ، ولا مآذن المساجد وإن كانوا لها يهرعون . لا إثم أن تحيا حياتك كما تُحب لك نداءات روحك وجسمك . وكان نكروما الذى طَوّف ما طَوّف وعرف من الناس من عرف ، إفريقيا فى كل جارحة منه وبالهايلايف بنى واحداً من جسوره الكُثر نحو قلوب الشباب فى القارة وكانت تلك أيامه الطاهرة . أخذ أفئدة الناس فى أديس بعزوفه عن اللجاج ، وكان هناك كثير يثير . أخفق الذين سعوا لإستثارته . ما ضاق بهزيمة ، وكانت كثيرة هزائمه . جاء بعضهم لا ليقطع أرضاً ، بل ليقطع الطريق عليه .

ساحرة حياة هذا الرّجل المأساة ، ثلاثة عشر عاماً بعد ، أذكر ذاك الذى أحاطه به الناس من حب ، إن كانوا يرون سبيله ، وأعجب إن كانوا لا يرون فيه غير حالم ، أذكر أعوانه معه . أقابل هذا الذى رأيت آنذاك الذى وقع فى بكين حين أتته أنباء أحداث غانا فجر ٢٤ فبراير ١٩٦٦ م . كانت هذه الفئة الضاحكة الباسمة التى رأيتها فى أديس هى عين الفئة التى صحبته لبكين . تفتت ذوات حين وقعت الواقعة التى سرد لنا أحداثها فى «أيام الظُلمة فى غانا» كما أسمى مذكراته وهى جديرة بعنايتك . سترى حسرة إفريقيا عليه . سنرى كيف إنفض عنه أعوانه الأقربون . لا ريب أنك ستعجب من أمر هذا الرجل المأساة إن عرفته معرفتى . إنه أيضاً ملوم . نسى وهو يلوم الهاربين حين هوى أنه أقام لنفسه التماثيل وهو حى ما راح ذمة التاريخ . نسى أنه أخريات أيامه كان قد أحاط نفسه بقوم ، يُوحون إليه أن النجوم تقف فى مسارها حين ينطق ، وإن الأرض تهتز فَرحاً حين يطؤها بقدمه ، وإن الدنيا تتثاءب ، له الأمر من قبلُ ومن بعدُ . وعبث لا نفع فيه أن يقول من يبررون هذه السقطات الآن . إن أعوانه كانوا قوماً خاسرين ، يداهنون . ينسون «إنما يدهن للقلب الحصر» وكان قلب نكروما ذلك القلب

المحصر ، تلكم الأيام . كان قد حصر ، ضاق . ما عاد لواحد غيره مكان غيره مكان هو الأول ، هو الآخر ، أغوته الأواني والصحاف والذهب فى داره ، وهو الذى ما عرف غير الكسرة والادام . أغواه السلطان وأصبح ينتقى ما يريد يأكل . ويجيء الذى يُريد ، يُنسيه جوع زارع الكاكاو يئن من وطأة أقدام هيئة تسويق تلكم السلعة التى تقوم عليها الحياة فى غانا ، وأنين عمال تكرادى ، وقد أفرغت الميناء من سفنها وكانت مئات من قبل تعدو وتروح على المرفأ .

شَوّه إسمه فى صحف العالم ، أقلام قادة الفكر الذين فروا كارهين من بلادهم كانوا يكتبون فى رسائل التايمز مما يتساقط إليهم من أنباء ، وكانت فئة ذات مكان وبيان . بوسيو العالم السياسى ، بدما الإقتصادى الذى بنى معه من القواعد ، ثم رعى السياسات المالية رعاية قادرة حتى سعى السعاة فأبدَلَهُ بينه وبين صديقه آمن بالسعاة فأبدله بغيره ، كان عجيباً البديل ، لا أقول مسخرة ، كان خسيساً كواسن ساكى حين هجر الرجل الذى عمل من أجله ، جعله رئيس الجمعية العامة فى الأمم المتحدة . وكان ذميماً كوازى أرمه وزير أشغاله الذى لاذ بلندن فى دار كان يملك هناك من دوره الكثيرة ، وبعيد أن يكون أحدهما اختار هذا القبيح الذى اختار ، راضى النفس . كان سيدهم يسوقهم سَوْقاً لغاياته ، ويخشون ألاّ يُذعنوا . يخافونه وقد إستأسد ، جمع الأمر كله فى قبضته . لا آمِر غيره . حين أتت ساعة التردد بين المُضى جنب صاحبهم المخوف والفرار . مشوا طريق الأمان الطريق النذل .

نسوا أن صاحبهم كان يوماً من الأيام عف اللسان والنفس كل ساعة من عمره الأول ذاك كان لحُلمه العظيم . أتى رجل غير الذى عرفوا فى البدء ، وكان من صنعهم هم الذين ما قالوا له غير الذى يزين له كل خاطرة فى باله ، وكان هذا من صنعه هو الذى أُنسى فكره وأمسك بالسلطان كله . أفسده أحبابه ، وكان كأشباهه ممن يملكون الأمر كله ، قد فَتَح جنبيه ، تعرض . «هاد يضل وحيران يدل ..» ما أَبْيَنَ عمنا العباسى وأكبره .

لا أحسب أن آثار أقدامه على القارة يستطيع واحد أن يمحوها . إنه واحد من أعظم الفاشلين فى حساب تاريخ القارة والعالم حولنا . أطل على القارة طاهراً مُنذراً نفسه وراح عنها مزيجاً من الخير والشر ، بشراً غير سوى .

* * *

وسائل الإعلام تُحى وتُميت . هكذا كان حالها مع الحاج تفوا بليوا رئيس وزراء نيجيريا . الأمور لا مكان لها هنا ، وضعته أيامنا تلك موضع زيد بن الحارثة وموضع

وليام بت . وكانت غير ذكية وسائل الإعلام فى الذى فعلت بشبابه الأخضر . أرادت له القيادة والرئاسة ، فكرهت إفريقيا أحشاء الرجل . كانت تلك أيام فتنة الناس بالغرب الذى قعد على ظهور السود فى القارة ستة قرون ، تململت بعدها ترمى بهذا العبء . تُصارع سادة بيض ، ما حسبوا أن يوماً كهذا سيجىء . كان كل الذى تقول موضع ريبة . كل الذى تشتهيه نقيض ما تريد القارة . ولحينه أغفل بليوا مناخ قارته . جاءنا من لاغوس على غلاف «تايم» وغلاف «تايم» أُمنية يدق لها أعناقهم الساسة والعلماء والفنانون والذباحون وباعة الهوى وكل نمط من أنماط النساء والرجال ، ممن يحبون لصيتهم أن يذبع . يصل عيون كل من تصلهم «تايم» ، التى تتقن كيف تبيع ، تصل الملايين .

كان سَخِياً حديث «تايم» عن بليوا سخاءً ما عرفته القارة إلا حين أوقفت بعض صفحاتها على «توم مبويا» ، قتيل آخر من قتلى حب الغرب لبعض قادة إفريقيا تلكم الأيام . ما كان بليوا ذا عَين حديد على الدعوة ، لذاته . ما كان قد عاش فى الحياة العامة كما عاش هيلاسلاسى وعاش نكروما وكانا كما رأيت يعدون الدعوة لذواتهم ، كما يعدها الفالحون من ساسة الولايات المتحدة ورجال أعمالها . أتته «تايم» غير مدعوة ، وكان قد وصل أيامه تلك مسرح السياسة فى نيجيريا ، وما أفرط فى الدعوة لذاته يمل ، ولا فرط ينسى . يمشى على هون ، يُجرب ، أوربا هى التى كانت ترمق نيجيريا بعين على زرعها ونفطها ومعادنها وكثرة السواعد فيها وتتسابق كلها على يدها ، ورأت فى بليوا الرجل الذى إن بَنتّهُ هى إقتضته الثمن فما كان حتى ذلك الحين ، حتى ذلك الطور فى حياته السياسية ، أكبر أعمدة السياسة والإدارة فى نيجيريا . كان ظلاً للرجل الذى كان يصنع الرجال ، سردونا سكتو ، ما كان غالباً بليوا نفسه . كان على خلق عظيم كان صائناً نفسه إلى أن أتت صحف وإذاعات أوربا وأمريكا تُصوره خلف أسلاف له فى الفوارس ، عزّت بهم الأرض بين النيل والنيجر بايمان دان فوديو ورماح الفوارس حوله من المجاهرين . لا يمكن لعزيز كهذا أن يسير سيرة العامة من الناس تصرخ فى وجه أوربا التى تابت وأنابت الآن ، الجميع أنداد يتبادلون النفع وكان صديقاً بليوا . منبتا . قال آمين : كان من الغافلين ، رأى كثيرون نذر النهاية التى إنتهى إليها حين رأوهُ فى اديس . آمن بالذى قالته عنه وسائل الإعلام ، وصدق بالذى أوحت له .

دخل القاعة رجلاً طويلاً عليه غلالة وملحفةُ مدرسة ، على بعض وجهه لثام أبيض ، يُغطى أسفل وجهه وبعض أنفه ، يدور على كتفه لرأسه عمامة صغيرة لُفّت عليها لفاً لصيقاً بها ، تعجز الخُماسين عن هزها ، ما كان كبيراً رأسه . كان أشبه برأس صبى ، لكنه كان يقبع على عنق طويل طويل ، يتصل بكتفين عاريتين ، فقد كانت عباءته الخضراء ذات الطول والعرض تبدأ عند المنكبين تسير طول جسمه الطويل

النحيف تصل منتصف حذائه الأوربى الأنيق لامع السواد . تحت العباءة الخضراء جلباب أبيض ينتهى بلياقة تعلو العباءة تـراها فوق كتفيه قرب رقبته ، وتمتد الأكمام على ذراعيه أشبه بمظلتين تنتهيان فرط عرضهما وتضيقان دون تدرج ، عند الرسغين ، على كل منهما زراير أوربية صفراء كقميص أنيق . فوق هذه الأحمال وجه فى حجم كفك ما بقى منه كثير وقد أخفى اللثام غير قليل منه ، وعينان غارتا لو لم يكن بريقهما الذكى المُشع لما رأيتهما بغير مشقة ، وقد زاد الغور غوراً أنف أفطح يزحم الوجه الصغير ، يطل دون فجوة بينهما على شفة إفريقية خالصة الإفريقية ، لا تلتقى بأختها ، تحول دونهما أسنان ذات حجم . لا تلتقى الشفتان .

ساءلتُ نفسى وهو ينزل درجات السلم ، من الدهليز للقاعة ، ألاّ ينوء هذا الرجل بأحماله من ملابسه ، وسريعاً أتاني الجواب لا ، لحظة أن وطئت قدماه القاعة من آخر درجة فى السلم . أجابت سريعة خُطاه الطويلة وبدنه المستقيم النحيل . أكثر أعوانه وراءه يكادون يجرون ليلحقوا به ، وعجبت . ما رأيت عليه عناءً وأنا أرقبه يسير لمقعده ، وكنت قد حسبت أنه يسرع كى نرى قدراته الجسدية وما كان هذا إلا فى بالى أنا ، القصير القامة ، قصير الخطو . كان ماشياً : بليوا ماشياً تخاله مُسرعاً ، ثم تَعرف إن بعض المشى جرى ، وجاءت نوبته فى الحديث فقام من مقعده يتلوى بين المقاعد حتى صعد ليجلس بين رئيس جلسة ذاك الصباح ونائبه ، ورقبت خطواته للمنصة . أدركت أنى أخطأت . ما هذا الملثم بشيخ فَنِى وَأسنَّ . خدعتنى أحمال ما كان يلبس ، لقد كان أصغر من سبقوه للمنبر ما عَدا الثلاثين إلا قليلاً وإن بدا أكبر ضعفين ، وجاء صوته من على المنبر يُدلل على فُتوته . جاءنا من عمق بعيد ، تحسبه صدى أو هدير فحل .

* * *

«الثورى الحقيقى ليس ذاك الحالم يعيش عينه مربوطة فى النجوم ، ساقاه تلوحان بينهما وبين أمنا الأرض . لا ينتمى هناك ولا ينتمى هنا الثوريون مِنا هُنا فى إفريقيا واهمون . أسلموا أنفسهم لخيالٍ غير مُلجم ، وخُيِّل إليهم أنهم قادرون على محو حقائق الحياة بنسيانها . الواقع قائم وإن أنكره المنكرون أو تناسوه . جاهل من يظن الحقائق تطير ذرات حين ينساها هو . الثورى الحقيقى يحلل المواقف بموضوعية علمية ويعمل وفق تحليله» .

مضى يحدث زملاءه وأعوانه عن أوليات من الفكر السياسى يقولها فى خطابيه ، يشهق معها حتى لتلتقى أضلاعه ، وكلما تقدم به الحديث رأيت فى نغمه غيظاً جاء بهمن بلده ، فما قال أحد من المتحدثين قبله شيئاً عن معنى الثورة ، ولا أشار أحد على الناس

بالذى عليهم أن يفعلوه . كان بليوا يقف عند بعض الكلام السُوقِى ، يقله كأنه إبتدع تلكم السُوقية . قال يأخذ على الناس أنهم ليسوا مثله ، إنه يعترف بأن «الحقيقه مرة» . علمنا إنه يعترف بهذه العامية سمعها كلنا كابراً عن كابر ، ثم واقفاً عند ذات نفسه ثانية :

«أنا لا أعد أحداً أعلى مقاماً منى أو أرفع مكانه منى ليكن أحمر ذاك الإنسان أو أصفر أو أخضر . أنا كفاء لكل كبير ، ندٌ له . للبيض للصفر ، للسمر ، للخضر» حديث مخبول . رفعت حواجبها القارة وهى تسمعه . فقد مضى منه يعدد خيرات نيجيريا وثرواتها وعدة أنفسها ومكانها الذى ينبغى أن يكون لها فى القارة ، ولا أستحى أن أقول أنى غفوت رغمى ، رأيته بين يقظة ومنام جالساً جنبى فى الإحتفال بإستقلال نيجيريا ، فى أدب طيب ، وإن كان جَهِماً لا يبعث على رضى أو حب ، وأذكرنى ساعتى تلك ، وعيناى تريانه فى القاعة وتسمعانه ، وتريانه فى ذلك الحفل معا ، فى آن ، الحق أنى إقتربت من قسوة على الرجل ، وحدثتنى نفس ، هذا نبت شيطان ، قذفت به عوامل سياسية ليست من صنعه ، ليقود واحداً من شعوب إفريقيا وما قاد من قبل غير مدرسته التى كان يعلم بها ، زمان كان السردونا ورجاله وأزكوى قبله ، يقذفون الحمم على النفوذ البريطانى ما كان عادلاً ذلك الخاطر ولا كان رحيماً . كان استجابة مغيظ لواحد يُزبِد بإيمان أجوف ويلح عليك أن تؤمن بالذى يؤمن .

«أنا أقول للناس كلما إلتقيت بهم . أنى لا أؤمن بالشخصية الإفريقية . أنا أؤمن بالشخصية الإنسانية . أنا أؤمن بأن الحديث الذى يملأ علينا أقطارنا عن الشخصية الإفريقية ، مَردّه لشعور بالحقارة عند من يقولون بها ويعيدون القول لا يضنيهم التكرار . يُضنينا الإستماع» أحسبك عرفت سر غيظه المكتوم ، كان بليوا ضيقاً بالذى تقول جماعة الرباط ، ورأيت معى منذ قليل أنه فى عداد السنين كان واحداً مِنهم . ذوت نضارة فكرة لأنه أبى الهواء الطلق ، إعتداداً واعتزازاً وأضحى مُنبتّاً ، لا يعنيه غير فكره ولا ينام إلا على تحيزاته لا يسائل نفسه بهزة من كتفيه يتمتم «شيوعيون» على الذين لا ينهجون نهجه أن يفسحوا الطريق للذين يرون كل شيء رؤيته . إنه عبد أواب . كان يتهجع الليل . آثار قيامه وقعوده على جبهته . أليس الله معه ؟ ما لهؤلاء لا يفقهون يقول بعضهم :

«إن الوحدة الإفريقية ينبغى أن تجيء الآن ، وهنا ، فى إجتماعنا هذا» . البعض يقول «إن الوحدة ينبغى أن تكون تاجاً على رأس خطوات فى سبيل أوجه التعاون كلها ، الإقتصاد ، التجارة ، التعليم ، العلم ، الثقافة» ويعود للأوليات يعوى بها ، كان واحد من زملائه ما سمع بها فى قبل ، كان لا يعرف . أكثرهم قَارع وصَارع وقرأ وكتب وما جاء حيث جاء من القيادة والرئاسة على بساط ريح . ما كان يعرف أن الرجل الكبير

سردونا سوكتو ، ما اختاره صوتاً له إلا لأنه عرف وأكبر فيه تقوى وإيمان بالله ، وهو فى مطلع شباب تشق فيه على الواحد التقوى ـ وتعسر العبادات ، لا يشق عليك الإيمان ولا تشق عليه خشيه خالقه . «إن الإفريقى فى أقطاره العُدّة يجب عليه أن يعرف بعضه البعض فى البدء كى يكتشف سبل التعاون يسيرها كلها قبل الحديث عن الوحدة . الوحدة السياسية ذات جوانب معقدة ، والإنسان الإفريقى غير مُعد للوحدة . ينبغى أن يعده قادته للوحدة على هون لا على عجل . نحن فى نيجيريا نؤمن بالخطوات العملية للطريق إلى الوحدة ، لا نؤمن بوحدة تفرضها فرضاً إرادة رجل أو آخر ، جماعة أو أخرى» . ومضى ومضى : «نحن فى نيجيريا» ...

* * *

الزهو فى السلطان أشوه العثرات . ما جاء هذا الخاشع المتبتل ليجادل بالتى هى أحسن . ما جاء ليُحاجَ منطقاً بآخر . فرحة الذين رجوا خيراً كثيراً من سجوده وهجوعه ، ما تمت . كان أول أيامنا فى أديس يغيب بعض وقت عن ندوة يثور فيها الجدال ، وكنت أحسبه ضيقاً بما قد يظنه ثرثرة . مثله فى ذلك مثل صاحبى . كان يخرج يؤدى الفريضة ، واحداً ممن نثنى عليهم عندنا ، أو نسخر لا أعرف ، نقول «ما يدخل صلاة فى صلاة» . كل واحدة فى زمانها الموقوت . كبر حجمه فى عينى آنذاك وصغرت أنا فى عينى . أقبلت على نفس ألومها عجزها ، كما أفعل من حين لحين . لا تمارس العبادات على إيمانها بها . إيمانها المُقيد ، إنها تصلى كما يفعل أطفال النصارى . يذكرون خالقهم البديع كل ليلة حين يذهبون يهجعون الليل . طاف بى شىء من الرضى عن نفسى العاجزة ، وأنا أستمع لهذا المُتبتل .

احسبنى زهوت فقد ذكرت وأنا أربُت على كتف نفسى الراضية . ربى الأكرم ، يحدث رسوله ليعرف أنه يؤثر السكينة «واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغُدو والآصال ....» لا اكتمل انى إزددت يقينا بأسلوبى فى الصلاة ، أسلوبى فى العبادات . قاصر عن الكمال يتعلق بأهداب الروح فى الإيمان وجوهر العبادات «قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم» .

لا أشك أن الكثرة المسلمة فى القاعة ، تساءلت هل الصلاة والصيام والقعود بديل العمل النافع ، بديل إسعاد من حولك . ما تحدثت لمسلم إفريقى فى الذى استرجع الآن من إحساس ، لكنى لن أعجب إن سمعت أو قرأت يوماً من الأيام ، إن أكثرهم أنكر الفُحش فى قول بليوا وعجب للزهو فيه . حمقى الذين يظنون أن «خشية الله» تعنى الخوف الواجل منه ، إنك لا تخاف تُوجل ، من تحب . تخاف توجل من الأنياب

الضارية ، والوجوه عليها قَتَرة ، والله جمالٌ وخير . أخشاهم له أرفق الناس بخلقه فى الذى يعمل والذى يقول : «مثل ما بعثنى الله عز وجل به فى الهُدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة قيعان لا تُمسك ماء ولاتُنبت كلأ» كان بليوا من الطائفة القيعان .

كان حديثه كما رأيت قليلاً منه حديث «عزيات» غمز فى زملائه ولمز . خذ عباراته عن «الشخصية الإفريقية» غمر ولمز فى نكروما لأن المفهوم إلتصق به إلتصاقاً وهو فى الحق لا يمكن أن يدعيه ، إنه أثر من آثار بلايدن العُدّة . أذاعه على الناس فى القارة نكروما على أيامه الأول الطاهرات وأعطاه سيرورة ما كان لها حين صاغها بلايدن ، الذى فطن للمفهوم ونكروما بعد صبى فى السياسة . قال بليوا إن القائلين بالشخصية الإفريقية ، قوم تملكتهم «عقدة الحقارة» إنه لا يؤمن بها . مع «الشخصية الإنسانية» مع وحدة الجنس البشري» . ترهات تصدر عن قلب خرب بالبُغض ، فقد كان بليوا لا يرى فى جماعة الرباط خيراً أى خير ، قضى أوفر شطر من حديثه ينتقصهم . نكروما بكلمات معدودات تشير لا تُفصح . عبث «العزيات» كما قلت . ناصر بنظرات ذات شرر . الحسن بهزة آسية من رأسه . كمن يُسائل نفسه ، ما لسليل الرسالات ، وهذه الفئة الباغية من «الشيوعيين» .

كانوا فى إيمانه خبيثاً ، لا فِكَراً ، ويعلم ربك أن جماعة الرباط ما كانت جماعة على النحو الذى سار عنهم آنذاك . كانوا أفراداً لكل سِمة ، كما ذكرت قبل قليل ربطت بينهم «معدية» حملتهم لشاطى الإستقلال القومى ، وقد إستعادوا إستقلالاتهم الوطنية . وصلوا وذهب كل سبيله كما يفعل ركاب أيّة «معدية» . ما كانوا مثل جماعة منروفيا التى كانت جاهلية ذاك الزمان «انصر أخاك» . بالمعنى السائر المغلوط . إن لم يكن هكذا الأمر ، كيف تأتّى لبليوا أن يهذى عن «الشخصية الإفريقية» ما رأيت من هذيان ، ولا يقف عند الزنجية ، التى كانت مفهوماً يعده أكثر المثقفين مقابلاً لمفهوم «الشخصية الإفريقية» . ويعده بعضهم شقاً آخر للإفريقية وهو فى الذى تعرف وأعرف مفهوم يخطف الأبصار بحلاوة لفظه ويستعصى عليك جوهره لأن سنقور حين أخذه عن مُبدعه إيمى سيزار ، أضاف كثيراً مما يستغلق إلاّ على الظن والحدس . ما غمز ولا لمز بليوا زميله سنقور فى جماعة منروفيا . نصر أخاه وما بين الرجلين شيء غير جامعة الخوف من الجديد . لست واحداً من أخواني الذين يرتابون فى الزنجية أحب الشعر والنثر الذى أوحت به ، وما سنقور إلا سابقاً فى هذه السبيل ، ولا «مبدعاً للناس ديناً» كما يجب أن يزعم ، لا جاهلاً يتحدث صباح مساء عن نشأة «الزنوجة» كما يسمونها فى أحضان الإستعمار ، والإستعمار ، بطّال والله يا أخوانى .

شغل بليوا بالناس ومواقفهم ، وألهاهُ هذا عن جوهر أمر المؤتمر . وشغل بنيجيريا . قال لنا إنها أكبر وأثرى الأقاليم فى القارة ، ووهم أنه صوت ذاك الثراء وتلك الكثرة . إنه خلق فريد . الآن الله معه ؟ أنه يعبده على النحو الذى قالت به الأئمة . يوم تهدأ النفوس فى نيجيريا يعكف الدارسون على شئونها السياسية فى تلك الفترة ، يقينى أنهم سيأسُون على بليوا يحزنون عليه أكثر الحزن . ما كان إمرأ سوء . كان حقيقاً برقعة فى نيجيريا تحتوى جسده الذى مزقه الثائرون عليه قطعاً ، ما عنى أحد بأن يجدها . لا قبر له ذاك التراب الذى ظَنَّ أنه يحمله على كتفيه وحده . وكان من المؤمنين الضالين ، فى الذى زعم . نورى السعيد شبيهه فى المنطقة العربية ، لا قبر ، لا مزار . كلاهما حسب أنه وحده يُعطى وعلى الآخرين أن يأخذوا لا يسألون . هنا ينتهى الشبه بين الرجلين . نورى عاش طويلاً ورأى كثيراً وانتهى إلى ما ينتهى إليه الأجداد . لا يرون الأحفاد غير أطفال ترعاهم إن أطاعوا الذى تقول ، وتضربهم الضرب القاتل إن قالوا «بغِم» . نورى الأول كان مقبولاً ، يدفعه المثال حوله ، فما عرف المثال المُطلق وحده . نورى الأخير .

عاش الواقع بعيداً حتى عن المثال الذى ما كان معدى عنه أيام صباه . ومات «مَرَهْ» كما نقول . مات امرأة . فى تاريخه الآخر سُدّت عليه المسالك ، فناور ولعب حتى أتى السلطة ما عنيه إلا أن تكون له وحده . يصنع بها بضعاً مما يريد وبضعاً مما يريد رفاقه . حمل بعضهم حملاً لسبيله وضلّ سواء السبيل . ما عاد يرى فى أحد فضيلة . جثث المُخالفيه رأيه تصلح جسراً لما يريد . لتكن قليلة أو كثيرة الجثث . هذه ليست من عناياته . إنه ابن جلا وتاريخ العراق أوهَمه بأن العراقيين لا يصلحون إلاّ بحجّاج يضع العُمامة . الحجاج الذى كان يعرفه نورى فى تاريخ العراق ليس الحجاج كله . تاريخ العراق الطويل . يعرف حَجّاجاً غير الذى يعرف العوام والطُغام . رجل طغت قولة واحدة على خِلاله الأخر هذه واحدة . الأخرى أن الزمان ما وقف مُنذ الحجاج ، أو خطبته تلك . جاء على أيامنا نحنُ برجال ما فَهم عنهم نورى : كبه ، السامرائى ، شنشل ، جميل ، والبزار . أعزهم الشباب كالجادر والحانى فضرب نورى لا يميز بين الطيب والخبيث وانتهى نهايته التى تعرف وكان هذا سنين قبل بليوا الذى وَهِمَ أن العبادات تُغنى عن الصالحات . عبرة تاريخ الرجلين على بعد ما بينهما من حضارة وثقافة وعمر تُعد بعشرات السنين ، إن كلاهما كان أسير إيمانه الغبى بالغرب الأوربى ، على زمان كان الغرب الأوربى ينظر وراء ويرتاب فى الذى فعل فى المشرق العربى والقارة الإفريقية . كان أذكياء الغرب ، يسألون تأريخهم . كم أحسن ، كم أساء . بليوا ونورى ما كانا يعرفان ، ولا يصبران على من يعرف ، وما لقيا أهل الذكر فى الغرب .

قلت قبل قليل أن نيجيريا ستنتظر ثانية للذى تعيش الآن من قلق وكانت تعيشه شهوراً معدودة بعد الإستقلال ، وأجزم جزماً إن العادلين من المؤرخين سيرون أن بليوا ما كان له عورات . دغدغته وسائل إعلام أوربا الغربية فاستجاب عرف خشية الله معرفة كتابيه . حسب خشية الله ، العبادات وحدها . نسى الصالحات ما أزهد الله فى هجوعنا . قال رسول «أمور دنياكم لكم» ، كى يُنفق ولاة الأمر وقتهم فى إسعادنا وراحتنا . فات هذا على بليوا . فحسب أن الحق واحد لا يراه غير من رضى هو وشيعته عنه ونسى أن للحق وجوهاً ، لا ينبغى له ولا لغيره أن يحمل الناس على الذى لا يريدون . إن أطاعوك وساروا يسيرون طريقك ، لا رغبة فيها ، لا طواعية .

* * *

إقتربنا من ختام أحاديث القارة . أطل علينا فجر يومنا الثانى مع الرؤساء نستمع لهم إن كنا فى القاعة ، نقرأ الذى قالوه فى صحف أثيوبيا أو أوراق مؤتمر القمة الأول للملوك والرؤساء الإفريقيين ، وكنا فى القاعة يومنا الثانى ، إقتربنا من الختام . أطل علينا فجر يومنا الثالث مع الرؤساء وما كان فى مقدور أحد أن يجىء القاعة الصباح ، كانوا فى القاعة حتى ذَرَّ شارق ذلك اليوم الجديد . بدأت جلسة المساء قليلاً بعد الظهر ، وكانت واحدة ما سبقتها جلسة مثلها . ما غاب عن كرسيه رئيس ولا غاب عضو وفد ، والشرفات ومقاصير أهل البيت واللُصقاء . جلست الأميرة مسفن سليشى وراء رأس أمرو هيلاسلاسى . خلف «القاوراش» ولى العهد أصفاوصن وزوجته . على مقربة منهم لا جنبهم . أهل الحظوة : الإخوة هبث ولد ، مكنن واكليلو وأطفالهم واطفالهن ، كانت الشرفات كذلك . شرفة الدبلوماسيين فوقها شرفة الصحفيين والمذيعين . الدهاليز والبارات خلايا نحل ، تطل من على مدخل القاعة ترى صفوفاً كل صوب على طول وعرض القصر الفضى ، أناس ما كان ممكناً لهم أن يقربوه . كنت ترى أيامك العادية أفراداً قليلين يحسرون يمرون قرب سور الحديد ثمن الجسارة إنحناءة تصل معها الجبهة قرب الأرض حين يأتون واحداً من بواباته الثلاث . كان الزحام خارج القاعة كالزحام داخلها : خانق .

تدافع الناس لدى مداخل قاعة الإجتماعات الكبرى ، وسمعنا من داخل القاعة الصامتة ، هرجاً فى الخارج وأصواتاً تصاعدت معها الأنفاس خشية أن يكون قد وقع المكروه . الذى عمل الإمبراطور كل الذى يستطيع كيلا يقع . زاد من خشية الناس داخل قاعة المؤتمر ، صراخ ودق على المداخل عنيف وزجاج يتساقط من أعلى على القاعة ، ورجل ضخم يعتدى بيديه ولسانه على حفظة الأمن ، لأنهم حالوا دونه ودخول شرفة الصحفيين ، ما كان يحمل بطاقة . سكنت روعة الإمبراطور ، لا يبسم إبتسامة

الظافر حين دخل الرجل الذى كان ينتظره الأصدقاء والاخصام على حد سواء ؛ عبد الناصر .

ران صمت على الذين كانوا يشغبون . ووقف الرؤساء وأهل البيت وأهل الحظوة والصحفيين يصفقون . عبد الناصر يخطو سريعاً للمنصة رافعاً يده اليمنى يُحى المحيبه ووقف منتصف الطريق رافعاً يديه يلوح بهما يشكر الود الصريح . ما أضنته رحلة النهار فيما بدا لنا ، ولا جلسة طويلة عقبتها فى مقصورته مع رفاقه ، هيكل وزكريا ، وفوزى ، وكانوا قد سبقوه يسمع منهم عن الذى كان من أمر المؤتمر . كان بصحبته ابن بيلا هو أيضاً بيديه ، كان لحظة ما رآها المؤتمر قبل . حتى سنقور كان فى القاعة . وما وقعت عيناى عليه ، بعد خطابه الأنيق . راح غرفته بعد أن قرأه علينا ، ولم يعد للقاعة غير تلكم اللحظة . رأيته مع الواقفين يصفق بكفيه الدقيقتين وطال وقوفه وهو النحيل الناعم ، وما كان مفتوناً بعبد الناصر على أيّة حال إتكأ على مقعده وشرع يُصلح وضع نظارته البيضاء ذات الإطار الذهبي ، ومن سترته السوداء ذات الخطوط البيض ، تستقيم على جسمه الضامر .

خاب أمل الذين أتوا ليروا الحمم يقذف بها عبد الناصر . خاب أملهم من أول فقرة فى خطاب «الصبى الأحمق» كما أسماه خروشوف ضيقاً به ولد لا يسمع الكلام . قال :

«من قرب مصب النيل جاء إلى هُنا وفد الجمهورية العربية المتحدة متبعاً مجرى النيل الخلّاق ، ووصل إلى منبع من أهم منابعه ، هنا فى هذا البلد العظيم فاذا كان بينكم أيها الأصدقاء من أبدى إعجابه فى هذه القاعة بكرم هذا الشعب الأثيوبى المجيد الذى أستضاف هذا المؤتمر فى بيته وبدقة تنظيمه . وبالأمة التى بذلت جهدها ليتمكن المؤتمر من إنجاز مهمته فى سهولة ويسر ، فلقد سبق لنا منذ سنين بعيدة ، قديمة قدم التاريخ الإنسانى ، أن عرفنا كرم هذا البلد ودقة نظامه يجىء إلينا فيضانا فى كل عام مع مجرى النيل الخلاق ويجىء إلينا فى موعده دائماً لا يتخلف عنه ولا يتأخر .....» .

وخاب أملهم مرة ثانية . أعرض عن الحديث عن إسرائيل ، وهو في الحقيقة يتحدث عنها مداوره . قال :

«إن الجمهورية العربية المتحدة أتت إلى هنا بقلب مفتوح وعقل مفتوح وتقدير للمسئولية مفعم بالنية الصادقة وهي مستعدة أن تتحمل إلى كل الحدود مسئوليتها التاريخية تجاه قارتنا الإفريقية ، ولقد جئنا إلى هنا بغير أنانية ، حتى المشكلة التي نعتبرها من أخطر مشاكلنا وهي مشكلة إسرائيل التي رأت معنا دول الدار " يضاء بحق

أنها أداة من أدوات التسلل الإستعماري في القارة وقاعدة من قواعده العدوانية ـ لن نطرحها للمناقشة في هذا الإجتماع مؤمنين بأن تقدم العمل الإفريقي الحر سوف يكشف الحقيقة يوماً بعد يوم بالتجربة» .

نَغمٌ رَخيٌ ناعمٌ ، لكنه لم يكن إلا حركة فى الإيقاع كله . وقف لدى الأفكار التى كانت تحوم في القاعة والردهات ، وقال أن جوهر الأمر هو الذى يعيه لا مظهره .

«لتكن جامعة إفريقية ، وليكن ميثاقاً لكل إفريقيا ، لتكن إجتماعات دورية لكل رؤساء إفريقيا وممثليها الشعبيين . ليكن أى شىء ! شىء واحد لا تريده الجمهورية العربية المتحدة هو أن تخرج بألفاظ حماسية أو بواجهات تنظيمية شكلية» .

قَرّت أعين الذين ما توقعوا غير الحِمم ، وتعِس الشباب الذى ما جاء يسمع ناصر ، حكيماً مُتئداً ، خلع عنه رداء الثورة . هذا هو رجلهم ، إنقلبت الموائد كما يقولون ـ رضى السباب أكبر الرضا . هذا هو رجلهم ، وتعس أولئك . ما كان ناصر عندهم إماماً ذا هداية . وقع هذا حين تحدث عن إعانة أوربا لإفريقيا ، يقول ما لم يقله أحد . تململ الإخوة بليوا وسنغور . فما كان سهلاً عليهما أن يبلغا ناصر وابن بلا معاً :

«المعونات فريضة واجبة الأداء ، على الدول الكبرى ذات التاريخ الإستعمارى قبل غيرها تعويضاً عن النهب الذى تعرضت له وما زالت تتعرض له شعوب عدة في إفريقيا وآسيا ، نزحاً منظماً ليكون الرخاء حكراً لغيرها ويبقى لها إحتكار الفقر» .

واقرأ الآن هذه الفقرة التى إقتطعت من خطاب الرئيس عبد الناصر في مفكرتى آنذاك ، ثلاث عشرة سنة بعد . أجدنى أسأل ، أكان توافقاً فى التوقيت ، محض صدفة ، أن يجتمع مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والإعانة ، عاماً واحداً بعد هذا ، في جنيف مارس سنة ١٩٦٤ م . إن زعمت لك أن المؤتمر جاء إستجابة لهذه ومثيلاتها من غضباب القارة في إفريقيا وآسيا تَزيدتُ لكنى لن أسقط من حسابى أن هناك صلة بين غضبات الفقراء واستجابة الأغنياء في النظر لا العمل ، فأنت تعرف أن هذا المؤتمر لم يعد على الغاضبين بشىءٍ يرتضونه . وهكذا تفعل مؤتمرات هذه الأيام ، كلها أباطيل تحملك على القول بأن الفقرة الشرسة في خطاب الرئيس عبد الناصر ، كان ينبغى أن تتلوها فقرات أشرس ، كيلا يعيش أهل إفريقيا وآسيا على حافة الحياة أو حافة الموت إن شئت .

شارف مؤتمر الرؤساء نهايته ثالث يوم . وشهد المساء وليمة لا أحب واحداً كان هناك ينساها . كانت ليلة عُرس شيخنا الفانى الكبيرة . ما أدرى أكاد يَنفُس على أسلافه ثيودور ومنليك ، ولائهم حديث الناس والكتب اليوم . أم كان سعيداً لأن

الرؤساء خرجوا فى أديس بميثاق ، بعد لحظات اللهفة التي عاشها الفتيان في الرباط والشيوخ من منروفيا ؟ ما كان مشهد من مشاهد الروائى الأثيوبى الأول قبر سلاس عن «ثيودور» .

لا علينا الذى كان في باله . تعال لحظات الوليمة ، التى إختار لها الامبراطور «القبى» أقدم قصور ملك الملوك ، سبط يهوذا . أقرب القصور الإمبراطورية لِقلاع أوربا في قرنها الوسيط .

* * *

«القبى» على رابية وسط أديس ، تشرف على المدينة ، أنّى وليت النظر من أبوابها المتراصة ، ونوافذها الكثيرة . الوليمة في صالة شطرها الذى يلقاك ميل ، يفصله عن شطره الآخر ستار من المخمل الخمرى ، أمامه مريم مكيبا فوق مُرتفع مُغطى هو الآخر بالمخمل الأحمر ، وعليها لباسها الأثير ، لا يغطى إلا الذى يجعل الواحد يتسائل ، ثم ماذا وراء هذه السُترة القليلة ، وما كانت مكيبا غير صبية تلكم الأيام ، ما تَسَامع السود كل مكان يعيشون فيه عن «لقلقتها» العسيرة التقليد . لا ولا عن موهبتها في الغناء بكل لسان تسمعه . أيامنا هذه وقد مشت وعرفت رجال ونساء كثيرين من كل مكان ، تهزج بأغانى فيروز . سحرتها رسولة العرب للنجوم ، حين لجأت وزوجها لغينيا ... وعرفت هناك عرباً يرعاهم ويرعاها سيكوتورى وهى حقيقة برعايته ، تحب حياتها حباً ، وتعيش فنها لا يصرفها عن وعى سياسى ، إستقر فى وجدانها من أسلافها المقاتلين . شاكا ، مزلكازى ، لقنبولا . ما مات واحد على حصيرته . ماتوا وقوفاً .

على جانبى الصالة فى «القبى» كانت صفوة إفريقيا . كل ذى شأن فى القارة كان هناك ، وما كانوا كثيرين تلكم الأيام . غير بعيد من ذوى الشأن في إفريقيا جلس مبعوثو الدُول الإفريقية . الدبلوماسيون زينة وإن إعتدى عليهم المعتدون ، يحسبون أن العالم المعاصر في غنى عنهم الآن ، وقد صار واحداً العالم يلتقى الرؤساء حين يشاؤن ، يديرون زراً يتحدثون لبعضهم البعض . يقولون بين طوكيو والخرطوم دقائق معدودة . خطل ، لا غناء عن الدبلوماسيين . هم بعثوا لعواصمهم عِبرة تلك الوليمة . ما هى ؟ يقظت إفريقيا لمكانها . تملك كل الذى تملك أوربا ، على خلاف بين ثقافة وحضارة القارتين . رأى كل مبعوث ذكى فى الوليمة ، تلك الفجوة الفاغرة فاهاً بين إفريقيا وأوربا . فجوة تمتد قروناً . هذه وليمة من ولائم الأباطرة في فينا . مكيبا وجوقتها يوهان ستراوس أباطرة النمسا ـ المجر . الصالة على الرابية هى ذاك الطابق الأول في دار الأوبرا في فينا .

دخل الرؤساء إثنين إثنين . كان هيلاسلاسى ممسكاً بيد ناصر فى المقدمة يبسم لمريم وجوقتها ، ووقف قرب الستار معه ناصر يحى كل داخل من القادة الإفريقيين المبعوثون الأغراب يحيونه ثم ضيفة ، واختلط الكبار والصغار ، القادة وأعوانهم فى يد كل واحد قدح من أعتق خمور فرنسا وأقدم سكرات أسكتلندا . فى يد جلالته كوب «تج» شراب خاصة الناس وعامتهم في أثيوبيا ، فى يد ناصر قدح ليمون كان حيا ذاك الخليط ، باسماً ضاحكاً كدأب كل شىء إفريقى الضحكة تملأ الفجاج كنا هناك بعض ساعة ودُعينا للمائدة على صوت أتى من مكبرات الصوت يدعونا لنتخذ مكاننا على المائدة . فعلنا .

دخل الشطر وراء الستار المخملى شيخ القادة هيلاسلاسى ، قدماه تزحف واحدة وراء الأخرى ، أسن وكبر . كنا ممسكاً بيد ناصر . كفه معروقة صغيرة الأصابع صغر أصابع الأطفال . كف ناصر كبيرة ، كف فلاح ، كانا نقيضين في الذى تراه منهما والذى لا تراه . جسداً وعقلاً . دخل وراءهما لموائد الطعام الرؤساء من إفريقيا ، الكبراء من أثيوبيا وأعوان الرؤساء والكبراء من بعد . ما كان مألوفاً العشاء ذاك . لم يجلس الإمبراطور في مقعد الشرف ، تيمان ، كان جديراً به ، إن مشيت مع المرسوم والمألوف ، أجلس الرئيس ناصر . طال العشاء والغناء ونحن في عجلة من أمرنا . نحن الفعلة . نريد أن نعود لقاعة الإجتماع نصوغ في كلمات مقبولة كل رأى وكل إتجاه كل منحى في السياسة الإفريقية بدا أن الرؤوساء إتفقوا عليه . وكان علينا ثلاثة منا أن نصوغ ألفاظهم المتفقة ومعانيهم المختلفة في عبارات زائفة لا تقول غير قليل . وأطل صاحبنا التليع اقبزجى على أذن الإمبراطور فهز هذا رأسه . وغمز بعينه أقبزجى لنا واحد وراء الآخر ، فخرجنا على أطراف أقدامنا ، تحملنا السيارات ثلاثاً ثلاثاً للقاعة نحن والحارسينا .

* * *

قال لى رفقتى في الطريق للقاعة ، أنهم يعجبون للإمبراطور أسير التقاليد والمراسيم لا يُجلس مقعد الشرف واحداً من الكبار . بعيدٌ أن يفوت هذا على ملك الملوك ، وقال أحد ثوار زامبيا ، وما كانت إستقلت بعد . الثوار لا تمسكهم دبلوماسية عن الكلام الطليق ، قال إن الإمبراطور عمد عمداً لهذا الذى فعل . تخرج الصحف غداة الوليمة تحمل صورته ، تاليران إفريقيا ، بجانبه ناصر ، روبسبيرها قلت أعابثه : لقد ابعدت يا أخى ، ولويت عنق التاريخ . أين تاليران في الزمان والسياسة من روبسبير ؟ تفصلهما سنون . اكثر من هذا . تفصلهما وسائل وغايات قال : أوه ، أنت والحقائق والدقة . أقفل خشمك الكبير . أنت معلم فقط . أردف رفيق لنا إنه يرى رأى

صاحبنا الثائر . أوضح أكثر قال إن هيلاسلاسى يريد ليومىء للكبار والصغار ، عليه هو وعلى الذين قادوا القارة منذ مطلع القرن ، أن ينازلوا هذا الجيل برفق . تتداخل الأجيال لا تتصادم .

مضى الليل إلا أقله . أطل علينا الفجر . دخل الرؤساء القاعة تحيط بكل واحد منهم بطانته . دخلت الصحافة والإذاعات من الدنيا بأجمعها . دخل الدبلوماسيون . ثم هدأ كل شيء دخل أقبزجي وأعوانه يضعون الوثيقة في غلافها الأخضر المذهب ليوقع الرؤساء واحدا وراء الآخر . جاء كل واحد وراء أخيه في القاعة . تدافعوا من بعيد يحيون بعضهم بعضاً ، ويهمس واحد من بطانة الإمبراطور شيئاً لا ريب . أبهجه ، كانت أعرض بسمه ، وكانت هزات رأسه تتوالى كمن يسمع ثناء يُلذ له ، لا يريد للحديث أن ينتهى ، وكان حديثاً لابد أعجبه وتيَهَهُ هزات رأسه تقول : «بالله قل وأعد يا طيِّب الخبر» وهو يرعى الرؤساء والوزراء ، يخرجون من القاعة يرحلون لبلادهم من دار أبى سفيان هذه التي دخلوها ثلاثة أيام سيرصد المؤرخون أحداثها كلها ، وأرقب أنا ذاك الرصد لأقابل بين الذى سيقول المؤرخون وبين الذى رأيته وأحسسته . كما قلت قبل ، قبل ، أنا كنت هناك فجر ذلك الميلاد .

* * *

وبعد ......

كتبت الصفحات التي أتيت على نهايتها هذه اللحظة ، مطالع هذا العام وكنت أستعين بمفكرتى التى حفظت منذ أيامى تلك ، وما كنت أعرف وأنا أودعها أسرارى ، أنى سأعود إليها لهذا الهدف الذى رأيت أول الكتاب وفى هذا الوقت بعينه . لو كنت أعرف الغيب لكانت مفكراتى أوفى وأشمل . إذن لكانت خواطرى أكثر تماسكاً . وما كانت أشتات كما ترى في مفكراتى أسماء أزعم أنها كانت شيئاً مذكوراً أيامنا تلك طوتها السنون في أقبيتها ، فما كانوا غير وظائف سياسية . مضت حين مضت عنهم الوظائف كأكثر أصحاب ناصر ونكروما ونيريرى . وفى مفكراتى تعابير ، أحياناً كلمات مفردات تثير التعابير فكراً وصوراً ومواقف لا أتبينها بوضوح ، وقد مضت عليها سنون ما جاء في بالى وأنا أكتب تلكم الذِكَر أنها ستكون قاعدة سنيننا هذه التى نعيش ، إنها ستظل معنا لليوم ، تدفعنا لما نعمل ولما نُحجم عنه . ولا نراها شطراً من دمنا ، ذكائنا ، ولا ندرك . أراها الآن خلال ضباب زمان راح ، إبتلعته أزمنه أتت بعده وكانت هى الأخرى مليئة بالمُثير والمُخوِّف والأمل وخيبة الأمل دخلت هى الأُخرى وجدانك . تفعل الذى تفعل أخواتها من قبل ، ولا ندرك نحن آخر الأمر شتات من تجاريب .

* * *

لُذت للذاكرة حين كتبت الصفحات التي قرأت قبل قليل أُعزز بها الذى ذكرت من أسماء وتعابير وفقرات خطب فى مفكراتى ، وبعثت الصفحات لإخوتى في الأهرام فنشروا الذى وجدوا له فسحة ، والذي رأوه أكثر إلتصاقاً بالندوة العربية الإفريقية ، وكانت

أسابيع بعد ، لهم الذكر فقد إختاروا ما رأوه يعين الجامعة العربية ويعين المنظمة الإفريقية ، حارسنا ذاك اللقاء بين قادة الإفريقيين وقادة العرب هذه الأيام ، ربيع هذه السنة وأحسنوا الإختيار وحين رحت أسأل عن الخواطر كلها ، ألفيتها هناك وسعدت بها فالذى تكتب بضع منك فى الوقت الذى تكتب فيه ، تريده ليبقى معك ، وإن لم يجد سبيله للناس . سعدت بأوراقى وعدت بها هنا لتجد مكانها جنب أخواتها من بدايات كُتب ما تيسرت نهاياتها بعد وبدايات بحوث ترنو إلىّ تلوم ، وكأنها ابن المعرى الذى أبدعه وانطقه العقاد رضى الله عنه ، يُسائل . «يا أبى طال فى الظلام قعودى فمتى أنت مخرجى للوجود» تُعاتبنى نفسه فأذكر لها ما يقول لى صلاح يُبرر ندرة ما يكتب من شعر ونثر على وفرة ما يقدر . يقول حين أرجوه أن يحرس موهبته ، سأفعل إن أريتنى طريقاً لاكتساب الرزق لا تحول دون حياة مواهبى ، ولا أجد الطريق التى عنها يسائل . عاجز أخى صلاح ، عجزى أنا .

ثم قرأ الخواطر كلها بعض أصفيائى . الأصفياء مصابيح طريقك فى العتمة لولاهم لما عكفت ليلات أسبوعى الماضى . اقوّم ما رأيت أن أُقوّمه على ضوء نقدات الأصفياء ، وأبقيت على أكثر الذى أرادوا لى ألاّ أُبقيه كما هو . أنا إن فعلت كل الذى رأوه ، خرج كتاب للناس غير الذى فى خاطرى وهُمْ ، الذى رأوا فيه كما هو غير معدل ، شيئاً يستاهل أن يراه الناس وكانوا يرجون له الكمال على أضوائهم وكان الكمال فى طوق أحد ! محمد سهد الليالى وما أدركه . هرع لكبار قريش وابن أم مكتوم يلحف فى السؤال . عتب عليه ربه ذاك العتاب الهامس الودود الذى تعرف فى «عبس وتولى» . جاء بعضهم بنقدات لكن شَقّ على أن أُبدل كلمة ، فكرة أو صورة على ضوئها . مثلاً قال واحد من أحبابى هؤلاء :

«إن الخواطر تتحدث للشباب أكثر ما تتحدث ، ولكنه سيلقى رهقاً . قال من حقه عليك وأنت الذى تضعه الموضع الذى اخترته له أن ترفق به ، أن تيسر له الذى تقول له . أكثره لن يطيق صبراً معك . إنك تجهدنا حتى نحن الذين ألفنارفقتك فى الذى كتبت من كتب عَصيّة . كلماتك وتعابيرك نقرؤها ثانية لنستوثق مما تريد أن تقول . نلقى رجالاً ونساء فى كتاباتك نضطر إضطراراً ، نستعين بالموسوعات لنعرف الذى كتبوا وعملوا للناس . أنت تفترض ما لا ينبغى أن نفترض . أنهم فى زعمك أسماء شائعة وأفكار ذائعة ، وليس من العدل أن تسير مع زعمك هذا . وإلا كتبت للكاتبين أشباهك ولقلة من الصابرين لا للقارئين ، كل القارئين» .

مأخذان لا مكان للحديث عنهما هنا ، أسوقهما لأقول لك أنى وأنت ، لم نكن لنحمل هذا الكتاب بين أيدينا لولا هذه الفئة الصالحة من إخوتى الذين أرضاهم الملف

الأخضر بعض الرضاء ، وقالوا لى أنه ربما أرضى غيرهم فزماننا هذا أوْلَى الأزمنة بالحديث إن كان خالصاً ذاك الحديث ، مُهذباً يحث على غيره ، فى تواضع ورحمة وحب . صدق صاحبى فى مأخذيه إلى أن يتاح لنا حديث أطول عن هذه النظرات ما عندى غير أن أعترف بأنى معه . «روائح الجنة فى الشباب» .. إنهم فى أكثر سطور الكتاب الذى قرأت وأقدم له الآن بعد نهايته على غير الذى ألِفت أنت وأنا . اللذين درجنا على قراءة المُقدمات قبل قراءة الكتب . الشباب فى السطور التى تأمل وفى السطور التى تضجر وتغضب . هذه حقيقة . الحقيقة المقابلة هى أن للكاتِبين لهم أن يجهدوا ويعرقوا . الكتابة عناء للخلق . هكذا القراءة فى مراقيها العَلِيّة . الإبداع كالكتابة تحتاج للعناء والعرق إن أردت لها أن تمسَّ حسك وترْفد عقلك وقبل هذا وذاك تدفعك للعمل .

* * *

صاحب آخر تملكه الجزع . قال أن الخواطر تُغلظ على واحد من القادة له تُبَّع وأصحاب . قال لن ينكروا عليك الذى تقول إن رأوا العدالة المتأنية فيها ولكنهم لن يفعلوا ذلك ، فهم حتى يومنا هذا آسون على الأسلوب الذى قُتل به ويربطون شخصه بآمالهم التى يتطلعون إليها ، وبلادهم تنتقل من حال لحال . ما نطق صاحبى عن هوى ، فهو واحد من المؤمنين بإستقلال فكرهم إيماناً تعرض من أجله لغير قليل من الضيق ، واتخذ لضيقه هذا مخارج على كُرهٍ منه ، وإن عادت عليه هذه المخارج بمعارف وتجاريب ، أراها زادته إيماناً على أيمانه فى مهجره نيجيريا .

كانت إشاراته الصقيلة فى ذهنى وأنا أُعيد قراءة الذى كتبت عن رَجُله ، وكنت أقرأ وفى بالى أن أُصلح بعض الذى أكون قد جمحت فى تأويله ، ورأيت ما لم أر من قبل . رأيت ما لم يكن فى خاطرى وأنا أدعها سبيلها لا أُقيدها بغير العداله له ولها :

أدركت وهذا الصفى فى ذهنى أنى كنتُ أكتب وأمام عَينى بصيرتى بلوتارك ، أحدث القدماء وأقدم المحدثين فى كتابة التاريخ . ما كان فى ذهنى الأئمة الذى إقتديت بهم «فى المسرحية الإفريقية» وخطاهم إقتفيت فى «وجدان إفريقيا» كتابان أشار إليهما صديقى وهو يحدثنى عن الذى وجد من مشقة صبرٍ عليهما وهو يقرأ .

ورث بلوتارك التاريخ للناس والفكر والأحداث عن هومر وهيرودتس وثيوثيديس وأضاف حسه وقيمه وأسلوبه للذى ورث عن هؤلاء، وإليه نظر كما كان يقول نُقاد الشعر العربى القديم حين يتصدون بالنقد لشعر المتنبى وأبو تمام مثلاً يرون فيه معان رأوها من قبل فى شعر من سبقهما ، تختلف التعابير ولا نختلف المعانى . إلى بلوتارك نظرت

بالمعنى الذى أقول من تبعتهم «فى المسرحية الإفريقية» وفى «وجدان إفريقيا» وسيعرف الذين قرأوا هذين الكتابين أنى أجهد لأرى التاريخ عين الرؤية التى رآها فيكو وكراوتش ، وبرلين وشرامنتى .

أسارع أقول أن لكل من هؤلاء نهجاً فى رؤيته ، وأطمح أن تكون لى رؤيتى تحمل طابع زمانى وسمات التراث الذى كان وحده فى دمى قبل أن يلتقى بفن هؤلاء الأئمة وعلمهم وأسلوبهم . أنا من زمان قريب من زمانهم . هنا نلتقى . أنا أعالج قضايا غير قضاياهم . هنا يروحون سبيلهم وأروح سبيلى . أكتب وفى ذهنى طرائق نظرهم ، ولا أستحى أن أقول أنى أحياناً أقلدها أنا فى زمان أضحى فيه أكثر كتاب للتاريخ عندنا صوراً مُعادة مما كتب بعض الإخباريين والمترسلين . نكتب عن ابن خلدون ولا ندرس طرائقه . هو أجدر الناس بنا الآن ، لأنه كان يكتب فى زمان كثير الشبه بزماننا هذا . كان يكتب أخريات القرن الرابع عشر ، وقد تهاوت فيه معاقل الإسلام ، وما كانت معاقل المسيحية أحسن حالاً ، لولا حيوية المدن الإيطالية وازدهار تجارتها . نحمده كثيراً ونثنى عليه منذ عبد الله عنان ، وما اقترب واحد منا لنهجه فى فهمه الفكر والأحداث والناس . ما كتب واحد على النحو الذى أبصر به شيخى هذا الدنيا ، وقد إستقر فى المغرب بعد أن رأى وطوّف وقرأ ، بعيداً عن دنيا الناس .

بلوتارك الذى إتخذته إماماً فى الذى كتبت من خواطر ، يكاد يعلق على حديث صديقى حين يقول فى مطلع سيرته للسياسى والقائد الإغريقى سايمن «أنا ممن يقولون بأن لوسيلس أحسن إلى شعبنا إحساناً بقى معنا حتى يومنا هذا وبينى وبين الذى عاش له وانجز أجيال ، لكنها لا تحول بينى وبين أن أصف أعماله فى كتابى «سير أزواج» بدقة تمليها علىّ ما عَلِمْتُ عنه من الأولين ذلك لأنى أؤمن بأن الصورة التى تُفلح فى تبيان مثل الرجل الذى تصور ، ترى حين تراها نوازعه التى يصدر عنها ، أولى بعنائك من تلك التى تقنع من الرجل الذى تكتب سيرته ، ذاك لأنها الشاهد الثَبت على أنه ما قضى حياته كما يقضيها البَطَلَة من الناس . إذن ما استحق جهدك ، كما سيقول لنفسه . سيأتى عليك الزيف والصورة ذات الأصباغ ، تبدو له وكأنها مثوبة الذى قال والذى فعل .

«حين يجلس فنان ليصور لنا وجهاً بَهياً رَيِّقاً . نحب له ألا يترك مأخذاً وإن كان ضئيلاً ذلك المأخذ . إن أغفل القبيحة الصغيرة كى تزين فى أعيننا الصورة . لا يحسن للصورة لأنها تشين فى أعيننا . إن غالى وأبرز تلك القبيحة التى نعرف فى ذلك الوجه ، خرب الشبه بين الصورة والحقيقة . إن الذين يصورون مثلهم مثل هذا ـ الفنان ، يصعب ، بل يستحيل أن نجد حياة إنسان بيضاء من غير سوء علينا أن نقف عند خير الفصول فى حياة من نكتب عنهم ونرسم منها الصورة الأتم ، تلك التى نعتقد أنها أقرب

الصور لحقيقة حياته . أما الخطايا والجرائم ، التى تشوه حياة الرجل ويكون قد أتاها عن نزوات ما أستطاع غِلابها أو ضرورات سياسية ، فعلينا أن نعدها نكسات عن فضيلة معينة فيه ، لا نعدها نتائج رذيلة فى دم الرجل وأحشائه . لا نريد لنا ألّا نقف عند هذه المواقف فى حياة الرجال ، لكنا لا نحب لنا أن نُسرف فى البحث عن الزلات والتأكيد عليها ، حين نكتب التاريخ علينا أن نذكر دائماً ، أن الطبع البشرى أعجز من أن يُعطينا رجلاً كامل الذات والصفات ، لا يحيد عن الفضيلة ، مُنذراً نفسه لها لا شىء يحيده عنها . ان ذكرنا هذا ، اتسمت كتاباتنا بالعطف على ضعف الإنسان وعجزه» .

ذاك نهج بلوتارك الذى طبقه فى كل سيرة كَتَبَ ، هو عندى سيد من كتب السِّيَر ، واتخذته كما قلت إماماً ، لعلى بلغت بعض الذى بلغ ، أو أعدتُ ذكراه لمن قرأوه يوماً من الأيام ، ليعودا إليه ثانية وقد نضجت عقولهم الآن أو أوشكت ، كما كانت الحال معى حين عدتُ إليه وكنت قد أُنسيته .

جمال محمد أحمد

١٩٧٧/٩/١٢ م

شكر وتقدير للأستاذ / عبدالقادر داؤود

علي مدنا بهذا الكتاب وإهتمامه المقدر علي نشر وتوثيق التراث النوبي
ولمزيد من المعلومات علي الموقع
www.nubianarchive.org

ابوبكر خيري



* لقد أثرى جمال محمد أحمد الحياة الأدبية والفكرية بعديد من المؤلفات والتراجم والبحوث في مجالات الأدب والفكر والدبلوماسية ونشرت له عُدّة كتب منها مطالعات في الشؤون الافريقية (١٩٦٨)، سالي فوحمر (١٩٧٠)، في المسرحية الإفريقية (١٩٧١)، وجدان إفريقيا (١٩٧٢)، عرب وأفارقة (١٩٧٧)، في الدبلوماسية السودانية (١٩٨٥) الجذور الفكرية للوطنية المصرية طبعتان عام (١٩٦١) و(١٩٦٨) بالانجليزية وصدر بترجمة د. محجوب التيجاني محمود الى العربية (١٩٩٦) عن اللجنة القومية لتخليد ذكرى الكاتب.

* صدر له ضمن كتاب بحوث إفريقية ـ العنصر الديني في اليقظة الجزائرية (١٩٦٧) بكلية نفيلو/اكسفورد وبحث متميز عن العلائق العربية الأوروبية صدر عن مؤسسة كزاد ادیناور، بون (١٩٨٢) وأضاف للمكتبة العربية مُعرّباً، الدولة الاتحادية، مادسن وجاي وهاملتن (١٩٥٩) وكتاب بازل دافدسن، افريقيا تحت أضواء جديدة (١٩٦١) والعنصر الانساني في الثقافة الإفريقية، تأليف ملفل هيرسوكوفتش (١٩٨٥) وله ولايات النيل المتحدة والثقافة الإفريقية المعاصرة.

هذا الرفد العارف والمتعمق في الشأنين العربي والإفريقي تمّ على بصيرة ورؤية واتكأ على تاريخ ومُكوِّن عميق الجذور.

* ترأس جمال محمد أحمد اتحاد طلاب كلية غردون كما عمل سكرتيراً لدار الثقافة، مستشاراً ثقافياً لمجلة حوار، عضواً بهيئة تحرير مجلة التاريخ الإفريقي المعاصر، عضواً مؤسساً لمركز الدراسات للوحدة العربية، مخططاً ومشاركاً في الكتابة لمجلة الصبيان (السودان)، عضواً مؤسساً للإنسايكلوبوديا الإفريقية (١٩٦٢).

* تولى جمال محمد أحمد سكرتارية الهيئة الستينية لمؤتمر الخريجين (١٩٣٦) وتميزت مساهماته في مركز دراسات الشرق الأوسط (هارفارد) ومعهد الدراسات الإفريقية والأسيوية (السودان) والمعهد الدولي لدراسة اللغة العربية.

* عمل سفيراً للسودان بالبلاد العربية واثيوبيا والمملكة المتحدة.

* تولى حقيبة الخارجية.

* شارك في عدّة ندوات عن الشؤون والإفريقية.

* أول رئيس لاتحاد الكتاب السودانيين.